تعذيب الجزائريات إبان الاستعمار الفرنسي

ل. شريفي وي. بجاوي

1. مقدمة **594**
2. ملاحظات عن تجارب الجزائريات في الحرب **595**
3. تعذيب الجزائريات **597**
1.3. الفدائيات 598
1.1.3. جزائرية مجهولة تشهد عن مركز الفرز بين عكنون 598
2.1.3. فاطمة بايشي 614
3.1.3. جميلة بوباشا 628
2.3. المجاهدات 635
1.2.3. خضرة بلاّمي 635
2.2.3. لويزة إغيل أحريز 646
3.2.3. باية العربي 650
3.3. المسبّلات 658
1.3.3. عائشة كماس 658
2.3.3. طلبية وفاطمة باج 660
4. اغتصاب الجزائريات **665**
1.4. وشهِد شاهد عن الاغتصاب 666
2.4. مقاصد الاغتصاب الحربي الفرنسي 677
3.4. عواقب الاغتصاب الحربي الفرنسي 681
1.3.4.ملحق تاركة الهتيكة: قضية خيرة قرن وابنها محمد 684
2.3.4. ملحق تاركة الهتيكة: قضية مجاهد اغتُصبت زوجته 688
5. خاتمة **692**

1. مقدمة

«ليس التعذيب في الجزائر بصدفةٍ أو غلطةٍ أو زلّةٍ. ولا يُدرَكُ الاستعمار بدون إدراك قدرته على التعذيب والاغتصاب والإبادة. إنّ التعذيب نمطٌ من العلاقات بين المسْتَعْمِر والمسْتَعْمَر.»[1]

ليس من العجب، بمقتضى قول فرنز فانون هذا، أنّ الاستعمار الفرنسي قد أثّر تأثيراً بالغاً على الجزائريات إبان ثورة التحرير.

عامَّةً ما تتأثر النساء من الحرب بصفتهن مدنيات، فتعانين من العواقب المباشرة وغير المباشرة للقتال والقصف، كما تقاسين من نُدرة القوت وضروريّات الحياة، ومن التهديد والمضايقة وحصر الحركة. ولما يغيب الرجال عن العائلة من جرّاء الالتحاق بالكفاح أو الاعتقال أو الموت أو الإخفاء أو الهجرة، تواجه النساء الحداد لفقدان أو فراق فلذات أكبادهن وضياع مكسبهن للرزق وكآبة المنقلب، إضافةً إلى أخذ أولادهن والكُهول من عائلاتهن وأحيانا جيرانهن على كفالتهن. ويشكل النساء والأطفال أغلبية المرحَّلين واللاجئين من جراء الحروب، وغالباً ما يُقرَنُ هذا التهجير أو المهاجرة بِفقدان الملك وافتقار النساء إلى الموارد للحفاظ على صحتهن وسترهن وكرامتهن. وتتأثر النساء أيضاً بالاعتقال في المعسكرات والمحتشدات والقرى الاستراتيجية. وكل هذه الضُروب من المعاناة تبدو هيِّنة بالمقارنة مع الاغتصاب والاستعباد الجنسي الذي تعرضت له النساء في الحروب عبر القرون عقاباً للمغلوبين وجزاءً للغالبين.

أما بالنسبة إلى آثار الحروب على النساء بصفتهن مشاركات في الأعمال الحربية — كمُحَاربات أو مُسَانِدات — فهي تختلف مما وُصِفَ أعلاه حيث تَقتلن أو تُقتلن وتُسجنن وتُعذّبن.

هذه العموميات لا تغني عن معرفة حيثيات آثار الاستعمار الفرنسي على الجزائريات، لكننا للأسف لا نعرف إلاّ القليل عن هذه الآثار إبان الحملات الإبادية الفاشلة للحفاظ على النظام الاستعماري (1954–1962)، ونعرف أقلّ من ذلك عن هذه الآثار إبان الحملات الإبادية الغازية لتأسيس هذا النظام (1830–1872).

إن القصد وراء هذا الجمع من القراءات هو استرعاء الانتباه إلى هذه الآثار — رغم أنّ المعلومات المتواجدة ضئيلة جداً وجلّها باللغة الفرنسية — وتوعية المواطنين والمواطنات بهذا الجانب المعتَّم من تاريخنا. وسيركّز هذا التدوين على التعذيب (في الفصل الثالث)

والاغتصاب (في الفصل الرابع) إبان ثورة التحرير (1954–1962) لكونهما مواضيع مكتومة.

وقبل الشروع في ذلك سيعرض هذا المقال – في الفصل الثاني – الأدوار المختلفة والفعّالة التي لعبتها الجزائريات في حرب التحرير، وذلك لتفادي إعطاء صور ناقصة أو مشوّهة عن مجموع التجارب التي عاشتها.

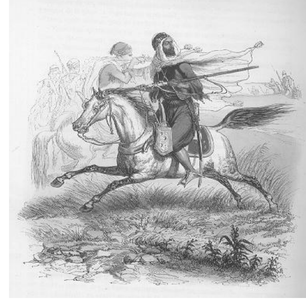
2. ملاحظات عن تجارب الجزائريات في الحرب

في الحروب غالباً ما تُصنَّف النساء في الفئة الحساسة «أطفال ونساء»، غير أن تجاربهن وأدوارهن أكثر تنوُّعاً وتعقيداً مما يوحي إليه هذا التصنيف في فئة الضحايا. فإبان الاستعمار الفرنسي عانت الجزائريات من الحرب بصفتهن جزءاً مستهدفاً من السكان المدنيين –كما شرحناه أعلاه – ولكن عاشتها أيضاً كجزائريات نشِطات يدافعن عن أمّتهن ضد التسلُّط العسكري والسياسي والثقافي الفرنسي.

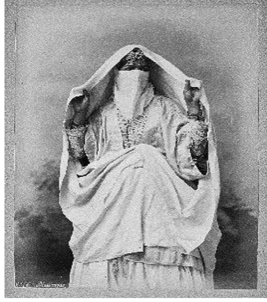


حصار مدينة قسنطينة

وأوضح نموذج لذلك هو الدور القيادي الروحي والسياسي والعسكري الذي لعبته المجاهدة لالة فاطمة نسومر لمجابهة هجمات الاستدمار الفرنسي بين 1854 و1857. وبعد انهزام المقاومة الوطنية ضد المحتلّين، لم تستسلم الجزائريات بل حافظن على الهوية والشخصية الجزائرية وعلى روح وشعلة المقاومة، ناقلين هذه الشعلة من جيل لآخر. فكانت الجزائريات حِصناً روحيّاً وثقافياً بارزاً ضد محاولات الاستعمار لخرق روح الجزائر وإخضاعها، ولذلك استهدفن تكراراً من طرف الإناسيين العسكريين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس ورجال القانون والمستشرقين الذين حاولوا مراراً رسم برنامج وطرق لكسر هذا الحصن. وحسب فانون فإنّ الإدارة الاستعمارية حاولت تعيين مذهب سياسي محدّد: «إذا أردنا ضرب المجتمع الجزائري في بُنْيَتِهِ وفي قدراته على المقاومة يجب أولاً أن نغزو النساء. فيجب علينا أن نأتي بهن من وراء الحجاب حيث تختفي ومن البيوت حيث يخبّؤهن الرجال.»[2]


فارس من جيش الأمير عبد القادر


مجاهد جزائري سنة 1880م


جزائرية في بداية القرن العشرين

وفي مرحلة الاستعمار الأخيرة ساهمت الجزائريات بصورة فعّالة في الكفاح لتحرير البلاد. فلم يشجّعن أزواجهن وأولادهن للالتحاق بالجهاد فحسب، بل ذهب بعضهن إلى طلاق أو هجرة الجبناء، والتحقت أكثر من عشرة آلاف[أ] نسوة بالثورة كفدائيات أو مجاهدات أو مسبِّلات أو مرشدات أو مناضلات. واستغلت الفدائيات في المدن قلة الاشتباه بهن ونُدرة تعرّضهن للتفتيش الجسدي لتنفيذ عمليات احتراقية وهجومية، كما قمن بأداء مهام النقل والاتصال والسَوْقيّات. ونشطت آلاف النساء في الجبال حيث خدمن الثورة بالعون العلاجي والقتال الاحتياطي. ومن المعروف أن الجزائريات كنّ يرغبن في نشاط قتالي أكبر ولكن جيش وحزب التحرير الوطني منعاهن عن ذلك، وشجعاهن بدلا عن ذلك على النشاط في المنظمات الإدارية السياسية (OPA).

وكانت معظم المشاركات في الثورة من المسبِّلات،[ب] ففي وصفه لهذا الدور يقول محمد بن يحي وهو قائد مجاهد سابق في الولاية الثالثة: «إنّ الثورة استدرجت كل شرائح المجتمع. في القرى كانت مشاركة النساء كبيرة. كانت المسبِّلات مجنَّدات ليلاً ونهاراً، تطبخن أكل المجاهدين وتغسلن ثيابهم وتخبّئن مؤونتهم ووثائقهم. وجراء ذلك استشهد الكثير منهن وسجن بعضهن وعذِّبن. كان هؤلاء النسوة يؤدِّين مهامهنّ الشاقة بسكوت ووقار. ما كانت المسبِّلات ترفعن أصوتهن قط، وما كنّ ليشتكين إطلاقا حتى لو كنّ منهكات. وفي غضون عملية جومال[ت] كانت النسوة تستخفين بالموت رغم الأسلاك الشائكة حول

[أ] حسب إحصاء وزارة المجاهدين القدامى أعلنت حوالي 11000 امرأة مشاركتهن في الثورة.

[ب] كلمة مشتقة من سبَّلت ثروتها وأنفُسَهُنّ في سبيل الله.

[ت] جومال (jumelles) كلمة فرنسية تعني المقرِّب.

المحتشدات المحروسة ليلا ونهاراً، ورغم المراقِب والدوريات، ورغم الحدود التي لا يتم اجتيازها إلاّ تحت طائلة الموت، ورغم منع التجّول ووضعه تحت طائلة القتل بلا إنذار. فعند هبوط الليل كانت النساء تتسللن عبر الأسلاك الشائكة وتُموّننا بإقطاع جزء من مواردهن القليلة.»[3]



جزائريات في محتشد بعد قصف الجيش الفرنسي

3. تعذيب الجزائريات

لم تُنشر حتى الآن أية إحصاءات عن الجزائريات اللواتي تعرضن للتعذيب إبان حرب التحرير، غير أن هوية معظم المعذَّبات معروفة: أقارب الفدائيين والمجاهدين اللواتي عذبن لانتزاع معلومات عن ذويهن، وكذا الفدائيات والمجاهدات والمسبِّلات والمرشدات وأعضاء المنظمة السياسية الإدارية. أما التعذيب العشوائي لاستخراج المعلومات وإرهاب المجتمع، فهناك بعض الشهادات بشأنه غير أن مدى ممارسته مجهول تماماً باستثناء ما جرى في العاصمة إبان معركة الجزائر حيث تعرض ثلاثين إلى أربعين بالمائة من سكان حي القصبة للاعتقال والاستنطاق حسب المؤرّخ الإنكليزي أليستر هورن.[4]

إن تعذيب الجزائريات تطوّر مع مجرى الثورة. فقد شاركت النسوة في الثورة منذ اندلاعها، ولكن لم تكن مشاركتهن مَرْئيّة سياسياً وعسكرياً لدى الفرنسيين إلاّ في سنة 1957 بعدما غيَّرت معركة الجزائر نظرتهم لدور المرأة في الكفاح جذرياً. وحينئذ تحولت نظرة السلطات الاستعمارية للجزائريات من «زوجات الفلاّقة» إلى «فلاّقات»، وبعد ذلك أصدرت هذه السلطات أمراً باعتبار النساء في مثل اشتباه وعداوة الرجال. فمثلا كان الجنرال ماسو (Massu) يأمر جنوده بتوقيف واستنطاق النساء ويشدّد على «عدم التهاون في أمر النساء لأنهن تتعرضن حالياً للتَعْبِئة من طرف المتمردين.»[5]

وقبل الشروع في التنكيل كانت كل النساء تُعرّى، تماماً كما كان يُفعل بالرجال، ثم كانت تتعرض لنفس أساليب التعذيب التي سُلطت على الرجال: الصفعات، واللكمات والركلات على كل أجزاء الجسد، والضرب والجرح بهراوات وأسلحة، والتعذيب بالخنق بالخرقة والماء أو في مغطس مليء بماء صابوني أو بالبول والغائط، والتعذيب بالكهرباء، والتعذيب بالحرمان من الماء والغذاء والنوم، والخَوْزَقَة على زجاجة مكسرة العنق،

والاغتصاب الجنسي[ث] والاغتصاب بأشياء شتى (قضبان، أذرع المكانس، الخ)، والتعذيب النفسي بالشتم والإهانة والتهديد بالقتل ومشاهدة تعذيب ضحايا آخرين، الخ.

وبعد محنة التعذيب كانت الجزائريات تُحاكمن جَوْراً ثم تُسجنَّ في معسكرات وسجون. وغالباً ما كانت هذه المعتقلات قد بُنيت للرجال، فكانت تفتقر إلى التجهيزات الخاصة بصحة النساء وحرمتهن وكرامتهن. وعلى سبيل الاستثناء كان يوجد معتقل في تفشون — الذي أُسّس عام 1957 — سُجنت فيه مئات الجزائريات.

وبما أن الشهادة على لسان الضحية أسهل للفهم وللتماثل مع المعذَّبات من العرض التحليلي، فقد لجأنا إلى عيّنة من الشهادات لم تطبع بعد باللغة العربية تغطّي جوانب متكاملة من محن الجزائريات. ويبدأ هذا الديوان بثلاث شهادات لفدائيات (جزائرية مجهولة وفاطمة بايشي وجميلة بوباشا) تتبعها ثلاث شهادات لمجاهدات (خضرة بلاّمي ولويزة إغيل أحريز وباية العربي). وينتهي هذا العرض بشهادة مسبِّلات (عائشة كماس، وطلبية وفاطمة باج).

1.3. الفدائيات

1.1.3. جزائرية مجهولة تشهد عن مركز الفرز بن عكنون

المصدر: باتريك كسال وجيوفاني بيريلي، الشعب الجزائري والحرب: رسائل وشهادات من سنوات 1954-1962، ص. 186-199.[6]

اندفعت الشاحنة التي كانت تنقلنا باتجاه درب ضيق ثم بدأت في التباطؤ، بعدها تم إنزالنا الواحد تلو الآخر. كان ذلك في الصباح الباكر ونظرا للظلام شبه الكلي السائد ساعتها تعذّر علينا التعرف على المكان. كان عدد من عناصر قوات الأمن الداخلي[ج] ووحدات المِظلِّيين[ح] يحيطون بنا. أكانت قوى الأمن الداخلي؟ من يشرف على هذا المعسكر؟ أسئلة عديدة كانت الأجوبة عنها مصيرية لأننا كنا نعلم أن عناصر قوات الأمن الداخلي لا يمارسون التعذيب. أُقتيد الرجال من مجموعتنا نحو أحد أطراف المعسكر وأخذونا نحن

[ث] راجع الفصل الرابع من المقال.
[ج] السي.أر.أس — CRS.
[ح] البارا — Paras.

النسوة الثلاثة إلى داخل مرقد مستطيل الشكل ليس به إنارة ولا أبواب، وفيه امرأتان كانتا نائمتين مغطاتين ببطانية وحَيْك[خ]. ثم استفاقت المرأتان عند اقترابنا منهما وفسحتا لنا مكانا إلى جانبهما. لم يكن لدي وقتها أدنى قوة للتحدث فقد نالت مني رغبة النوم من شدة الإعياء؛ النوم أخيرا وفي الهواء الطلق، لا حراس أمامنا، ولا أنين ولا صراخ!

كان المعسكر يبدو هادئا ومهملا ولكن لم أكلف نفسي المزيد من التساؤلات، فنمت نوماً عميقاً، الأول من نوعه منذ اعتقالي.

وهكذا بدأت حياتنا في المعسكر. في الأيام الأولى داخل المرقد، كان التفكير في مصيرنا هو شغلنا الشاغل رغم أن ظروف إقامتنا لم تكن زاهرة على الإطلاق. فكنا ننام على أرضية إسمنتية ولم يكن هناك زجاج على نوافذ القاعة ولم نكن نحصل إلاّ على وجبة هزيلة في اليوم كانت عبارة عن علبة سردين بالزيت.

كانت كل واحدة منا تصف أنواع التعذيب الذي تعرضت له وتُظهر آثاره المختلفة على جسدها.

كانت هناك السيدة أورداش وهي أم لثمانية أطفال وأرملة منذ شهر واحد (قد قَتَل العسكر زوجها)، وعند اعتقالها تركت وراءها أحد أطفالها الصغار مريضا طريح الفراش. إنها تعرضت لشتى أنواع التعذيب: التيار الكهربائي، وسكب الماء داخل المعدة، والمغطس. وكشفت لنا عن جهة كليتها المسودة بأثر التعذيب بالكهرباء، واسترعى انتباهي مظهر الذعر على عينيها. ولما كانت تتحدث عن أطفالها الذين تُرِكوا مهمَلين كانت تتعتع أحيانا وتجهش بالبكاء فتقول: «من يا ترى سيطعمهم؟»

كانت هناك ليلى، وهي مُومِسة مُخلَّعة المِشْيَة، في الثانية والعشرين من العمر شعرها مسبوغ بماء الأكسجين وكانت حيوية في تصرفاتها. كانت تحاول أن ترفّه عنا، فكانت تحكي محنتها بحركات وتفاصيل تهريجية وذاتية الاستهزاء بلغة فرنسية مشوهة: «لا لا مسيو السرجان، أنا لست زوجة بن بلا...»[د] وقصّت لنا كيف صعد المظلِّيّون فوق بطنها لإفراغ معدتها من الماء، وكيف غوّصوا رأسها في المغطس.

وكانت هناك امرأة عجوز اسمها ف. ق. كانت قد رافقتنا على متن الشاحنة، وكانت مصابة بمرض الربو تتنفس بصعوبة مصدرة صوتاً صاخباً. وقد عُذِّبت بالتيار الكهربائي

[خ] ثوب أبيض خارجي ترتديه النساء في شمال إفريقية.

[د] كلا، كلا سيدي الرقيب، أنا لست زوجة بن بلا.

لحملها على الإقرار بمكان اختفاء ولدها. فلم تعد تشعر هذه العجوز بذراعها الأيمن من جراء التعذيب. أنا الأخرى لاحظت على ذراعيّها العديد من النقط بنيّة اللون تشبه كثيرا الكَلَف، وبقِيت على حالها عشرة أيام تقريبا.

أما الأخت ع. والأخت إ. فقد تم تعذيبهما في مراكز مختلفة، وهي عديدة بالعاصمة حسب شهادات المعتقلات الجدد.

لم يكن من الممكن مشاهدة السجناء الرجال داخل الساحة من نوافذنا. إلاّ أنه في الصباح كنا نسمع أحيانا أصوات أنات خافتة ينقلها الريح، ولكن أثناء الليل كان ذلك النواح مسموعاً بوضوح. ومن حين لآخر كان مظلّيٌّ يدخل قاعتنا ويهزؤ بِخوفنا ثم يخبرنا أنه آخذ في «معالجة» بعض السجناء ويده تقلد حركة تدوير المدوِّرة الكهربائية. ولما كنّا نسأله: «هل تعذبون هنا؟» لم يجب ولا مرة واحدة بشكل واضح عن هذا السؤال، فبقينا نعيش على إيقاع مخاوفنا.

كان المعسكر يمتد أمامنا على مساحة فسيحة، فكان عبارة عن معسكرات قديمة أقام فيها الجنود الأمريكيون سنة 1945، واستُعملت كمدرسة بعد ذلك. كانت عبارة عن ستة إلى ثماني بنايات نصف أسطوانية مطلية بالجير تصطف على جانبي ساحة مستطيلة، على مسافة مائة متر تقريبا. وبعد فترة وجيزة امتلأ المعسكر، وشرع مساعد مظلّيّ في تسجيل أسماء القادمين الجدد عند دخولهم قاعتنا. كنا نراهم يتوافدون أمام مكتبه ويسلّمون وثائق هويتهم وكل ما بحوزتهم، وكان المساعد يضعها كلها بداخل غلاف من الورق المقوى. إنّ عدد هذه الأغلفة تكاثر على ممر الساعات...

وفي إحدى الليالي جيء إلى قاعتنا بخمس نسوة، كان من بينهن ف. وح. وم. وس. أتت كلهن من مدرسة صحراوي، فعَلِمْنا عن طريقهن أسماء معذِّبينا، وأخذنا نكرر باستمرار هذه الأسماء كل مساء كي لا ننساها.

ومع تزايد عدد السجينات أدخلونا قاعة مخصصة للنساء، وفي أواخر شهر أوت وصل عددنا الأربعين امرأة. بدأنا نتجمَّع عقب ذلك بالتجانس، فغالبا ما كانت النساء الأكبر سنا بيننا تجتمعن فيما بينهن، بينما كانت حديثات السن كثيرات الضجيج تتطايرن داخل القاعة.

بفضل ف.، التي كانت امرأة حيوية وجد ذكية، عاد إلينا من جديد جو من الضحك والتسلية، إذ كانت تقص علينا العديد من الطرائف سَمَعتها داخل «المركز» من السجينات تحكينها لبعضهن البعض. أتذكر قصتها عن رجلٍ بدين وطيّب — كان من قدامى المحاربين في الجيش الفرنسي — تم إيقافه في كَبْسة شرطيّة، وفي محاولة منه لاستجداء واستعطاف معذِّبيه كان يصرخ بكل قواه من شدة آلام شحنات الكهرباء: «فرنسا لن تموت أبدا!»، بضغط مفرط على حرف *الراء* إلى حد الجنون...

لكن رغم ذلك، كان القلق يضنينا. ماذا سيكون مصيرنا؟ إلى متى سنبقى في هذا المكان؟ كيف يمكننا طمأنة عائلاتنا؟

وشيئاً فشيئاً بدأ المظلّيّون ينظّمون أحوال المعسكر، فأقاموا الأسلاك الشائكة فوق الجدران، كما وضعوا شبابيك على نوافذ قاعاتنا. أما مهمة قوات الأمن الداخلي فكانت تقتصر على دور الحراسة بالرشّاشات...

وكان نزلاء المراقد (حوالي مِئَة سجين في المرقد الواحد) يسيرون مرتين كل اليوم أرتالاً إلى المراحيض تحت حراسة بعض المظلّيّين الذين كانوا يسرعون الخطى تحت وقع البنادق. كان ذلك رَتَلٌ أليم! كنا نشاهد خلف شبابيكنا بقلوب منقبضة هذه الشُلّ البشرية وهم يعرجون أو يجرّون أقدامهم، والمرضى محمولون على ذراع رفقائهم، وكبار السن دائما في مؤخرة الصفوف، وأكثرهم شجاعة في المقدمة، كل واحد من هذا الموكب ماسك بيده صندوقاً حديدياً ... بداخله فضلاته أثناء الليل. وجوه ملتحية ومذعورة، وأجساد معذَّبة، جيل بحاله من الشباب هَرَم في غضون أسابيع معدودة وكان يُسرع الخطى تحت ضربات وصراخ وشتائم الحراس.

وبعد عشرة أيام من وصولنا، دخل مساعدٌ قاعتنا آخر الظهيرة وصاح فينا: «قمن! وهيئن أنفسكن!»

تم إخراجنا من القاعة وسط حالة من الغليان، جميعنا شاحبات الوجوه. أما الرجال فقد حُشِروا صفوفا أمامنا، ولم يكونوا أحسن حالا منا. وبعد فترة وجيزة امتلأ جانب واسع من الساحة بالسجناء.

ثم نزل رجل حَرِك قصير القامة يرتدي قبعة حمراء — النقيب بيتو — من سيارة الجيب، ثم جلس خلف طاولة وُضعت في الساحة. أما نحن، فكنا جلوساً متربعين وننتظر. وبعد صمت مُغِمّ ارتفع صوت النقيب بنبرة من الثقة والوضوح: «هل أحضرتم المرضى؟ أُريد المرضى أيضاً!»

وقام السجناء بنقل بعض الأجساد أمام أبواب المراقد وتطلّب ذلك بعض الوقت. كنا نتساءل بقلق: «ماذا سيفعلون؟» فتوجّه النقيب إلى السجناء وقال: «سأناديكم بأسمائكم وعليكم أن تجيبوا "حاضر" ثم يجب أن تذهبوا إلى الطرف الآخر من الساحة.»

بدأت المناداة فيما انتهزنا الفرصة لاسترجاع أنفاسنا. وشرعت واحدة من بين النسوة في عدّ السجناء، ثم قالت: «أكثر من ثلاث مائة.» وفي بعض الأحيان كانت هناك أسماء تبقى بدون رد، فيتدخّل المساعد ويقول «هذا متواجد بالسَرِية الفلانة»، أو يُتبع اسم الغائب بهمس لا نفهم كنهه. وكان النقيب يواصل مناداته بصوت جَهْوَري وواثق؛ كنت أفكر بمرارة في أولئك «الغائبين». وبدأ الليل يزحف شيئاً فشيئاً، وبعد حين صرنا كحشد من الأشباح جالسين بعضنا جانب بعض، وأشرف النقيب على الانتهاء من مناداة الأسماء الأخيرة بصعوبة لافتة.

اندفعنا بعد ذلك نحو المراقد، فكان يصعب على المظلّيّين الحفاظ على الانضباط لقلة عددهم. وكانت هناك ضوضاء كبيرة، إذ كانت كل واحدة منا تنادي الأخرى بحرارة ووجوهنا خفية ومجهولة، وظلمة الليل تُلْبِسُ أجسادنا المعذَّبة.

كان هناك نسوة جدد تتوافدن كل يوم. كن يصفن لنا تعرضهن لـ«الاستجواب» ثم بعد ذلك تزوّدننا ببعض الأخبار. أخبرتنا بعض المعتقلات من مدرسة صحراوي عن انتحار شابة عمرها 19 عاما ألقت بنفسها من نافذة المدرسة لتضع حدا للتعذيب. كانت أخت ز. ت. (المدعوة أ.) معنا، وكان ينتابها القلق حول مصير أختها (ز.) فطمأناها. وبعد ذلك لم تفارقها ح. — طالبة شابة عمرها 20 عاماً — لأنها كانت تعلم أنها مصابة بمرض في القلب وشاهدتها وهي يُغمى عليها مرارا بعد حصص التعذيب.

جاءت ف. هي الأخرى — وهي أخت م. إ. التي أُنْعِشَت أمام أعيننا بمدرسة صحراوي. كانت ف. البنت البكر في عائلة ربها معتقل وأختها في حالة فرار. وهذه الأخت جُرِحت من قبل المِظلّيّين في عملية حصار حول مزرعة حيث كانت متواجدة برفقة ب. س. — الذي استشهد في العملية — لمحاولة إعادة تنظيم شبكة للمقاومة. ولم يبق ببيت ف. سوى الأم وأبناؤها الصغار.

فهكذا كان المعسكر يمزّق العائلات، غير أنه كان أحياناً يلمّ شمل العائلة الواحدة. فداخل مرقدنا كان يوجد ثلاثة أزواج لشقيقات. وشقيقتان كان أبوهما وأخوهما الأصغر (طفل عمره عشر سنوات) يوجدان بإحدى القاعات المجاورة لنا. فكانتا تسرّبان لهما الخبز وتغسلان لهما ملابسهما.

ذات يوم رجعت ح. وهي تبكي بعد أن عثرت على شقيقها ثلاثة أسابيع بعد اعتقاله في المعسكر. فهي لم تتعرّف عليه منذ وصوله وسط ذلك الموكب المحزن من شُلّ بشرية مشوّهة. وعندما التقت ح. أخاها داخل غرفة التمريض أسرّ لها أنه لم يكن يرغب في أن تراه حتى لا تُصدم برؤية وضعه المزري.

كنا نتابع مجريات الحياة اليومية داخل المعسكر. كان هناك تعاقب دائم للسجناء في طريقهم إلى المراحيض العفنة. ففي أواخر شهر أوت كان هناك حوالي ثمانمائة سجين يتناوبون على ثمانية مراحيض فقط. وكانوا يبدؤون على الساعة السادسة صباحا لينتهوا حوالي التاسعة مساء، أحيانا في ظلمة شبه مطلقة. وفي الصباح الباكر كان قرابة الخمسين سجيناً يتوجهون إلى السُخْرَة، ولدى رجوعهم في المساء كانت تُعيَّن قاعة صُدْفةً ثم يتم تفتيشهم بطريقة منتظمة. كما كانت فترة الصباح مخصصة للإسعاف في غرفة التمريض.

كان يتوافد كل يوم معتقلون جدد، غالبا في أفواج من ثلاثين إلى أربعين شخصاً. ومع هذا التزايد في عدد السجناء، فإنه نادر ما شهدنا إخلاء سبيل الأسرى. لم يُخل سبيل السجناء إلاّ مرتان منذ اعتقالي.

كانت هناك حركات يومية لم نستطع التعود عليها، وهي القوائم البيضاء التي كان يشهرها المظلّيّون التابعون لفرقة الدعم. فكان مظلّيّان أو ثلاثة يأتيان بغتة، في الصباح وأحيانا في الليل، من مركز التعذيب، ويتوجهون صوب مكتب المساعد، ثم يخرجون بصحبته وقائمتهم باليد. وبعد ذلك كانوا ينتزعون سجيناً أو أكثر من أحد المراقد، فنسمع صوت سيارة الجيب وهي تغادر المعسكر برفقائنا المساكين. لا شك أنهم كانوا ذاهبين إلى المزيد من التعذيب من جراء وشايات جديدة واعترافات باطلة.

لم نكن بمعسكر عادي، وكل ما حملته الأيام المتعاقبة أكدت لنا ذلك. كنا نعيش بمعسكر أسود (سرّي) وغير شرعي كانوا ينادونه بتبجح «مركز فرز». أجل كان «فرزاً» من نوع خاص إذ كنا نبقى في حالة انتظار وشايات أخرى ترجعنا إلى مركز التعذيب مجددا. وقبل ذلك كان لا بد من انتظار اندمال جراحنا وتلاشى آثار المعاملات القمعية التي تعرّضنا لها. وهكذا عشنا شهوراً طويلةً في عزلة تامة عن العالم الخارجي، مرتابين دون أدنى خبر عن ذوينا الذين اعتبرونا مفقودين. غير أنّ معاملتهم إيانا كالحيوانات لم تُثبِّط همنا لأننا كنا نتشجّع بالإحساس الجماعي لأفراد يحملون نفس الأحقاد إزاء نفس المعانات ويتبنّون نفس القضية.

كانت غرفة التمريض في إحدى القاعات الصغيرة قُبالة قاعتنا، وكنا نرى كل صباح عبر الشبابيك «عُرْجاً» جالسين تحت الشمس ظهورهم مُسندة إلى الجدران ينتظرون دورهم في العلاج. كانوا حوالي الخمسين بعضهم أعرج والبعض الآخر حمل على أذرع الرفقاء، وكان معظمهم تظهر على كواحلهم ومعاصمهم آثار بقع حمراء صغيرة.

كان هذا الأمر يشغلنا ويحيّرنا: لماذا يحمل كلهم هذه البقع على كواحلهم؟ وعلِمنا تفسير ذلك فيما بعد: فإنّ القيود تنغرز في لحم الجسد بفعل الاهتزاز عقب التعذيب بالكهرباء. كانت هذه الجراح تبقى أسابيع مهملة دون علاج، فتتقيح ثم تدهن بالمركركروم[ذ]. وبعدما شرح لنا أحد المظلّيّين هذه الظاهرة أضاف قائلاً: «إنهم لا يتقنون عملهم، لو كنت بدلهم لوضعت بين القيود قطعة من الورق المقوى لتثبيتها.» كان السجين الممرِّض س. يقدم كل الإسعافات بينما كان الممرِّض المظلّيّ المرافق يكتفي بالحديث معنا. كان س. يقيم داخل غرفة التمريض وسط اثنا عشر مريضاً إصاباتهم خطيرة، كل مريض ملقى فوق بطانيته ووضعه الصحي يتطلب عناية مستمرة.

أثناء قيامنا بكنس ساحة المعسكر تمكنّا من الإطّلاع على شهادات صارخة عن ضروب التعذيب. فكان المسْلولون ممتدون على الأرض وجوههم شاحبة وعيونهم محمومة، يحيط بهم العديد من بقع البصاق. ورأيت ساقاً تميل إلى السواد ومنتفخة بشكل مروّع. وفي إحدى الزوايا كان رجل يتنفس بمشقة ونظره جاحظ. وكانت أجساد تئن من كل جانب. كانت أدوية الممرِّض تتراكم فوق طاولة مدرسية صغيرة: كحول، ومركركروم، وأقراص أسبرين، وأقراص كنين، ولا مضاد حيوي واحد! يبدو أنّ س. كان يقتصد في استعمال الكحول والضمادات لقلّة تسليم هذه الأدوية. وكان السجناء خارج القاعة يدخلون الواحد تلو الآخر، ثم يكشفون عن جروحهم التي غالباً ما كانت تقع على الأطراف. وقد شاهدت شجة عريضة على جبين سجين نتيجة ضربات تعرّض لها، كما رأيت وجوهاً منتفخة وحروقاً على مستوى اللثة أحدثتها لسعات التيار الكهربائي. كان بعض المعتقلين يمشون بصعوبة بسبب التهابات موجعة بين أفخاذهم وحروقاً في المناطق الحساسة. ولم يكن داع لشهادات صريحة عن التعذيب. كانت الندوب الصغيرة على البطون وفي مناطق مختلفة من الأجساد تدل على آثار تركيز الأقطاب الكهربائية...

وكان هناك مجنونٌ هائج يروح ويغدو داخل «ساحة المعجزات» الجديدة هذه. هل كان مجنوناً قبل أن يُعتقل؟ هل جنّ نتيجة التعذيب، أم أنه كان يتظاهر بالجنون فحسب؟ كان

[ذ] دواء أحمر يستعمل لتطهير الجروح.

يبدو لي مختلاً: لا مجال للشك في نَظْرَتِه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يتمتّع بحرية تامة ويتنقل داخل الساحة من أدناها إلى أقصاها بحركات إيمائية، يومئ مشاهد من الملاكمة بصفة جد متقنة. وكان كل مساء على الساعة السابعة تقريبا، يقوم بالركض حول المعسكر مهرولاً تحت تشجيع المظلّيّين الذين كانوا يتسلّون بالمشهد. في بداية الأمر كانت قلوبنا تدمي من مشاهدة هذه الروح المريضة التائهة والمتعرضة للوحوش الذين كانوا يحرسوننا. ولكن على ممر الأيام بدأنا نألف هذا المشهد. فكان هذا المجنون يدخل مرقدنا فجأةً ويجلس وسطنا برهة، وهو يتحدث مع نفسه بصوت خرير، وكنا نقدم له بعض الطعام مع أنّ نوعاً من الخوف كان ينتابنا، وبعد ذلك كان يعود إلى عالمه الخاص.

أحياناً كان الممرِّض مُرَافَق بطبيب مظلِّيّ طويل القامة ونحيف وجلف بعض الشيء، كان يتحدث بلكنة قوية تميّز أهل منطقة البروتون الفرنسية. كثيراً ما كان يزورنا لأنه كان يوجد بقاعتنا مرضى نحن كذلك: امرأة شابة عمرها 19 سنة حامل في شهرها الثالث، حَلَمة ثديها وثنية فخذها بهما حروق من آثار الكهرباء وكانت تتبوّل دما، وامرأة نحيفة اسمها ح. في الأربعين من عمرها ذات بشرة سوداء داكنة تعرج في مشيتها وكانت مصابة بمرض الربو، وامرأة اسمها أ. ت. مصابة بمرض القلب، الخ... كنا نتحدث إلى الطبيب مطوّلا، فكان يجيب: «ماذا تريدون أن أفعل؟ ليس لديّ أيّ شيء وليس هناك أدوية.» بعد ذلك أشار بذقنه في اتجاه غرفة التمريض وقال: «على كل حال سيموتون كلهم، من المفروض أن يدخل هؤلاء كلهم إلى المستشفى، حالتهم بحاجة إلى أنواع أخرى من العلاج، هذا أمر واضح.»

كنا نتدبر أمرنا كي نوصِل للمرضى أصحاب الحالات الخطيرة بعض المربىّ والخبز والحليب كنا نشتريها سراً من خارج المعسكر. ذات مساء رجعت ك. – بعدما كُلِّفت بكنس ساحة المعسكر – إلى القاعة في حالة هيجان وروع: «هل تدرون من يوجد هناك في حالة مزرية؟ إنه مصطفى، صائغ شارع بوتان. لقد عرفني، والله إنه رجل شهم، المسكين! غدا سنأخذ إليه بعض الطعام.» كانت الأخوات اللواتي تقطن الحي تعرفنه، فقالت أنّ عمره 25 سنة وهو أب لطفلتين، والكل يحترمه ويقدره. وقالت أ. ك. أنه بعد اعتقال زوجها اقترح عليها مصطفى مساعدة وكأنه عضو من العائلة. وفي اليوم التالي استطاعت بعض السجينات زيارته والحديث معه قليلا. لقد كان يتنفس بصعوبة قصوى ويصعب التعرف عليه حسبما أخبرتنا زائراته عند عودتهن.

وبعدها لفظ هذا الشاب أنفاسه الأخيرة على الساعة الواحدة صباحا. وبقيت المصابيح الكهربائية تضيء جدران غرفة التمريض طول الليل. سمعنا دخول سيارة الطبيب

إلى المعسكر، وبقيت أضواء مكتب المساعد مضاءة إلى ساعة متأخرة. وفي الصباح، كان الخبر قد انتشر بين السجناء: إنّ مصطفى صائغ شارع بوتان قد استشهد وأضلعه مهشمة. استلمت ك. ملابسه، ولبست قميصه الذي كان من نسيج إسفنجي متعدد الألوان.

بدأ عدد السجينات يتزايد داخل مرقدنا، وبصفتنا نسوة كنا نستفيد من بعض التسهيلات: كان باب قاعتنا يبقى مفتوحا عدة ساعات في النهار، وكنا نذهب إلى المراحيض متى شئنا ونغسل ملابسنا، ونستحمّ بأنبوب الماء. كما كنا نتوفر على بعض البطانيات التي نستفيد منها جميعا.

وفي المقابل كان الرجال يعانون أكثر منا، يفترشون الأرض ويلتحفون بسترة إذا حصلوا عليها. وكانوا يُمنعون من الخروج إلاّ في صفوف منتظمة، مرتان في اليوم، وهم محاطون بمظلِّيّين، وعند رجوعهم كان المظليون ينهالون عليهم ضربا كالكلاب، ثم كانت أبواب قاعاتهم تُغلق.

وجاء مظلِّيّان يوما لأخذ ف. بعدما اندرج اسمها ضمن القائمة البيضاء. كانت ف. تلبس ثيابها ووجهها شاحب، وهي تئن. أنا أيضاً كنت أرتعش وأنا أساعدها بصعوبة على جمع أغراضها. وكان من الصعب علينا تشجيعها على ما كان ينتظرها: «تشجّعي ف.! تشجّعي لعله خطأ فقط.»

إنّ ذهابها تركنا في حالة إحباط عميق، وبحرماننا من صداقتها بدا الوقت وكأنه ينقضي ببطء. ثم شرعت الفنانات — أ. الراقصة، وف. د. مغنية القصائد وأختها — في بعث الحياة من جديد داخل قاعتنا. وانضمت ر. س. — أخت نشطة جداً سبق أن سافرت كثيراً — إلى مجموعتنا، كما التحقت بنا بنت في السادسة عشر بضفائر سوداء تسمّى ح. كانت تعتبر الصغرى بيننا. وتجمَّعت أيضاً معنا مّا حليمة، وكان تجانس هذه العجوز القصيرة النحيفة منحنية الظهر معنا قد بدأ في اليوم الذي وصلت فيه هنا بمفردها وكنا آنذاك في حالة صعبة. كنا يومها نفتقد إلى البطانيات، ونستفيق من النوم من شدة البرد. وكنا نلجأ إلى حكاية القصص لبعضنا البعض في انتظار الصباح. فلم تجد مّا حليمة عند وصولها بيننا مأوى واكتفت بالنوم على زاوية من البطانية دون أن تشكو. فأصبحت وجسدها مُوَصِّم وراحت تتمدد وهي تقول: «آه، أيتها الحرية! ما أشدّ ما نعانيه من أجلك!» هذه الكلمات ذكّرتنا ما كان من المفروض أن يربط بيننا داخل هذه القاعة. إذن فقد استقبلناها بمجموعتنا لِما برهنت عليه من فيض شبابها. فكان المظلِّيّون قد عذبوها بالكهرباء لحملها على الإقرار بإيواء ياسف سعدي.

إنّ قُرب انعقاد جلسة منظمة الأمم المتحدة كان ينشِّط وتيرة الاعتقالات لأنّ فرنسا كانت ترغب في القبض على علي لبوانت وياسف سعدي أمواتاً أو أحياءً قبل انعقاد الجلسة. فكان التعذيب يسير باطراد: فتيات، أطفال، شيوخ... كانت الأم تُعذَّب لإلقاء القبض على الابن، والزوجة أمام أعين زوجها، والطفل لاعتقال الأب. وجيء آنذاك بمجموعة بحالها من الشابات قد اشتغلن كضابطات ارْتِبَاط أو قمن بإيواء قادة مُطَارَدين. كانت من بينهم سكينة لا تزال تحتفظ ببراءة ابتسامة الطفولة، كانت في السابعة عشر من العمر وذات جمال خارق يبدو عنفوان على ملامحها، وكان جمال وجهها يحمل آثار ضرب مبرح ترك سواداً حول إحدى عينيها.

لم تنقطع شهادات التعذيب. تعرّضت ب. ف. للتعذيب بالكهرباء والمغطس وأُدخل عمود خشبي في فرجها. كما أخذوا امرأة شابة عمرها 35 سنة على متن سفينة إلى البحر واغطسوا رأسها داخل الماء مرات عدة إلى درجة الاختناق لحملها على الإقرار. فغالبا ما كنا نجدها شبه غارقة في حالة من الإنهاك، لأنها لم تتعاف بعد من أثر التعذيب. وكانت عدة فتيات قد تعرضن للاغتصاب، منهن د. أ. التي أُجلست قسرياً على عنق قنينة مكسورة وشحن الفرنسيون لثتها بالكهرباء، فكان الدم لا يزال ينزف من لثتها.

كانت الأسابيع تنصرم. كانت الأخت أُ. قد أنهت شهرها الثاني داخل المعتقَل ولكن عيناها لا تزالان تتجهان صوبنا دون أن ترانا، نظرتها تشبه نظرة المجانين، وكانت ذكرى الابن الذي تركته طريح الفراش تضفي عليها تلك النظرة التي لا تُحتمل.

وفي بعض الليالي كان التوتر العصبي يبلغ أَوْجَه، فكانت شجارات عنيفة تنفجر تارة بسبب بطانية وتارة أخرى بسبب قطعة من الخبز أو كلمة عابرة، وتتحوّل عندها قاعتنا إلى قاعة عامة من مشفى الأمراض العقلية، البعض يضحكن ويغنين والبعض الآخر يصرخن بجنون. إنّ الشيء الوحيد الذي كان يكبح جماح أعصابنا هو الجوع والحزن. فلمّا تصل الساعة الواحدة والنصف ولم نتغذَّ بعد، كنا نتمدَّد كل واحدة بزاويتها، نَعْسانات وجائعات، والإنهاك يحول دون تجديد الشجار. كان الكَرْبُ مُعْدٍ، إذ كان يصيبنا أحيانا بشكل جماعي ويتسبّب في إجهاش مدوّ وأنظار مرعبة. يا سعد من كانت تستطيع أن تبكي للتخفيف من كربها.

كان لِف. د.[ر] — المغنية المشهورة — الفضل الكبير علينا في تلك الأوقات العسيرة، رغم أنها نادراً ما كانت تغنّي. لم تكن تغني إلاّ عند ساعات الإلهام العميق وتفعل ذلك من أجلنا كلنا. فبينما كنا ذات مساء نسمع الأخت إ. وهي تبكي عن والدتها المريضة، أُعْدِينا بحزنها فكانت كل واحدة منا مهمومة بحالة ذويها. وكان كرب إ. كالغصة داخل حلوقنا، فشرعت ف. في غناء الأغنية الشعبية «فاض الوحش عليّ» بصوت ناعم وإيقاع مضبوط، صدرها مستقيمٌ، وكأنها غائبة عن المكان. فانبعث الحنين من أعماقي، وأثار غِناءها إجهاش الجميع بالبكاء.

ومع مرور الوقت بدأت الأحاديث تكشف الشُغْل الشّاغِل لكل واحدة منا. فكان للعجائز كلام يتكرر باستمرار، وكلام مّا حليمة كان يهزّ مشاعري دائماً: كانت تأسف بصوتها الواهن على فقدان منحة تقاعدها الصغيرة بعد أن أمضت حياة بأكملها في مشقة العمل كخادمة بأحد الفنادق.

كنا نقف أحيانا طيلة الظهيرة أمام النوافذ التي تطلّ على البادية، خارج المعسكر. كنا نرى طريقاً مُغَبَّراً تحت حراسة قوات الأمن الداخلي؛ وكان هذا الطريق هو الفاصل بيننا وبين الحياة العامة. ولما كانت بعض العائلات تتمكن من الوصول إلى هذا الطريق كانت تصرخ باتجاه شبابيكنا وتنادي أسماء شخصية أو عائلية قبل أن تُطرَد بعيدا باتجاه الغابة من قِبل قوات الأمن الداخلي. وكنا نجيبهم بأعلى أصواتنا كلما تأكّدنا من انشغال حراسنا. وبعد أسابيع عدة من موت مصطفى صائغ شارع بوتان، جاءت زوجته لتسأل عنه، فنادت: «مصطفى!»، فردّت عليها ك. وقالت: «إنه بخير!» إنها ستعلم لا محال بالخبر فيما بعد، ولعل ذلك سيحدث في ظروف أحسن...

وكباقي سجون العالم كنا نعيش حالات متقلّبة، فكان لنا كذلك أوقاتا مرحة... كنا ننسى همومنا بفضل الأخت إ.، تلك المرأة الرحالة الجميلة التي كانت ترقص وتغني ونحن نصفق، كما علّمتنا ف. ت. العديد من الأناشيد الوطنية. وقبل أن ننام كانت السيدة ح.، المرأة العجوز، تقص علينا أساطير بصوت منخفض يهدهدنا.

[ر] الإشارة هنا تلمّح إلى المغنية فضيلة الجزائرية.

تحمّلنا الجوع والبرد والقمل وحتى تلك القوائم البيضاء الكريهة، ولكن روعنا الأكبر كان «بُوشكَارَة»[ز]. فكلما كانت الواحدة منا تراه من بعيد وهو ينزل من سيارة الجيب، كانت تهرع إلى الداخل وعينيها مبهورتان لإبلاغنا الخبر. وعَقِب ذلك كنا نضع الأخْمِرة أو الحاكة أو أي ثوب أمامنا على رؤوسنا وكتفينا، لا يُرَى من وجوهنا سوى جانب ضئيل. كان «بُوشكَارَة» يتقدم وهو مطوَّق بمِظلِّيّين وصدره ووجهه يغطيهما كيس بثقبين على مستوى العينين. وغالبا ما كان يزحف بمساعدة المِظلِّيّين ويديه مقيدتان وراء الظهر مما كان يدل على قدومه من حصة تعذيب. وكان الرجال المعتقَلون هم كذلك يبتعدون عن النوافذ عند رؤيته، فكان الخوف يمتلكنا جميعا. كان مجيء الرجل المقَنَّع غرضه وشاية «شريكه». كانوا يُدخلونه إلى كل المراقد والسجناء واقفون ينتابهم القلق عند عملية الاستعراض. أما نحن النسوة، فكان البعض منا يغمى عليها من التأثر بهذا الرجل المقنّع. وكان وضعنا الصحي والخوف اليومي المستولي علينا لا يمكّننا من تحمّل مثل تلك المشاهد. كنا نعلم أنه يمكن لـ«بُوشكَارَة» أن يوشي بأيّ شخص كان من أجل ربح قليل من الوقت أو للتخفيف من عذابه، أو بدافع العدوانية أو الغيرة إزاء أحد من معارفه. كان الموشى به يغادر بصحبتهم على متن نفس السيارة الجيب، ولم نكن ساعتها نجرؤ على تخيّل مصيره. وفي بعض الأحيان كان «بُوشكَارَة» يعود من حيث أتى دون الوشاية بأيّ من السجناء.

وفي حديثنا عن السياسة مع كلٍّ من المساعد والمراقب بدأنا نتعرّف على حُرّاسنا ومُعذِّبينا، هؤلاء القوم خليط من الأيتام وأبناء الملاجئ وأبكار عائلات كبيرة والكثير من المغامرين، باختصار كان هناك خليط من المنْبوذين والعُنُد والمعَقَّدين نفسياً. تشاجَرَ اثنان منهم ذات يوم، بعد الظهيرة، فانتهيا إلى التقاتل بالخناجر وسط الساحة. شاهدنا المعركة من نوافذنا والفرح يثلج صدورنا لتناحر معذِّبينا.

وأثناء دردشتنا علمتُ بعض التفاصيل عن المعسكر، من ضمنها أنّ هذا المعسكر سريّ، وأنّ الأصوات التي سمعناها في الأيام الأولى من وصولنا كان مصدرها أحد المرضى قام الحراس ببتر أحد أطرافه بأنفسهم، كما علمتُ أنّ معسكرات سريّة أخرى توجد في ضواحي العاصمة وحيّ الأبيار وسيدي فرج ولاَرُدوتْ، الخ.

ز بُوشكَارة يرجع لُغوياً إلى الشِكارة وهو ما يُخاط من خِرَق فيُجعل منه كيساً، والإشارة هنا إلى المعتَقل الذي يقلّبه العدو بالتعذيب إلى واش، فيضع قناعاً على وجهه — وهو عبارة عن كيس ذي ثقبين لكي يستطيع الرؤية دون أن يعرفه الغير — ثم يأتي به العدو وسط المتهَمين للوشاية.

وفي أواخر شهر أوت قرأنا على السبورة السوداء داخل مكتبهم أن عدد السجناء وصل إلى 864. وانتشر آنذاك مرض الزحار داخل المعسكر عند الرجال، ثم أُصيبت به بعض النسوة.

غير أننّا لم نستسلم للوضع. فكانت الأخبار تصلنا أخيرا، وكانت الجرائد تنتقل من مرقد إلى آخر رغم عمليات التفتيش. كان الرجال لا يزالون يجرؤون على الاستهزاء بالحراس. وذات مرة كان مظلّيّ يردّ السجناء إلى مرقدهم، فأرغم أحدهم على الرقص أمامه. فخرج السجين من الصفوف مترددا ثم بدأ يرقص بينما كان جميع رفقائه يصفقون ويصيحون مرتجلين وبصوت واحد: «يلعن [الله] والديكم! يلعن [الله] والديكم!» فأحدث ذلك رضى واسعاً وسط المظلّيّين الذين لم يفهموا شيئاً... أتاح لنا ذلك فرصة للانبساط.

فوجِئنا أيّما مفاجأة عند مشهد ف. ت. وهي داخلة إلى المعسكر بحقيبة في يدها ووشاح خفيف على رأسها وهي مطوَّقة بمظلّيان. مَنْ هذه الفتاة التي تمَهَّلت على جمع ملابسها في حقيبة للإقامة الحزينة بالمعسكر؟ كانت تلك الهيئة تضفي عليها صورة راكبة لم تدفع تذكرتها قد تم ضبطها عند النزول. وبعدما اندمجت فينا، قصّت علينا ف. ت. «أسفارها» العديدة، وآخر «وقوفها» في معسكر بني مسوس حيث عُذِّبت مجددا شهوراً بعد وصولها هناك من مركز تعذيب سابق. إنّ معسكر بني مسوس لم يوظف للاعتقال فحسب، بل كان يُستعمل لإعادة الاستنطاق بالتعذيب أيضاً. وقد تعرّضت ف. ت. لشتى ألوان العذاب: «الماء»، و«المغطس»، و«الكهرباء». وأسرّت لنا أنها حاولت الانتحار قبل استجوابها الثاني، فقالت: «كانت تلك النافذة تجذبني وما كان عليّ سوى أن أنحني. ولا زلت أتمنى الموت.» وقد أبعدها مظلّيّ من النافذة في الوقت المناسب، وها هي مرة أخرى في «سفرها» الثالث. شعرنا أنها مُضْطَرِبة وقلقة، وكانت تسألنا: «لماذا أنا هنا؟ لماذا عليّ أن أنتقل من معسكر لآخر؟ ربما يودّون تعذيبي من جديد... هل تظنين أنهم يفكّرون في إطلاق سراحي، إن قدومي هنا يتزامن تماما مع نهاية قضائي ثلاثة أشهر ببني مسوس؟»

كانت تتقلب بين أرعب المخَاوِف وأسذج الآمال، ولم تكن تستطيع النوم. وأياماً بعد ذلك اقتطفنا محادثات تدلي بأنها ستُستنطق من جديد في اليوم التالي. فاتفقنا مع الأخت ر. على تهيئتها بطريقة حاذِقة للابتلاء الجديد، كي لا تفاجأ لما يجيؤا لأخذها، وكان لدينا ليلة بحالها من أجل القيام بذلك. كانت ف. تصغي إلى قصصنا المفصّلة عن استجواباتنا التي كنا نحشرها بالصدفة داخل حديثنا: «ها قد تعافينا الآن، بل ونحن في صحة جيدة.

إنّ مع العُسْرِ يُسْرا والمهم هو الصمود.» لم تفهم ف. مغزى كلامنا إلاّ عندما جاؤوا لأخذها.

دام غيابها يوماً أو يومين ثم عادت بوجه شاحب شيئاً ما. كنا نحيط بها، فقالت: «شيء من الكهرباء، تخيلوا أنهم قد أخطؤوا، ولكنهم لم يدركوا خطأهم إلاّ بعد بعض الصواعق الكهربائية...» بعدها أصبحت كئيبة في غالب الأحيان كما تقوقعت وزادت ورعاً، ولاحظتُ أنّ التعذيب قد أصابها بإنهاك عصبي. كانت تتحدث باستمرار عن الموت، وبعد أسبوع رُدّت مرة أخرى إلى معسكر بني مسوس.

وذات صباح انتشر خبر الإفراج عن العديد من السجناء، وكان الكل يأمل أن يكون ضمن القائمة. لم ينقطع رنين الهاتف وعمّت المعسكر حيوية كبيرة. تمت مناداة السجناء المعنيين بإخلاء سبيلهم (قرابة المائة) في مراقدهم، ثم جُمعوا داخل قاعة فارغة حيث قام المساعد بفحص جراحهم، وكان الويل لمن لا تزال آثار تعذيبه واضحة، فكان لا بد من حجزه في المعسكر إلى أن يُشفى منها كليا.

وبعد ذلك دخل النقيب بيتو القاعة وخطب في الجمع مطوّلا تحت تصفيق حار... وافترق السجناء والنقيب على هتافات: «تحيا فرنسا! تحيا الجزائر!» لم يكن من المستغرب أن يُهتف «يحيا التعذيب!» في خضم ذلك الجو حيث لم يعد للكلمات أيّ معنى، خاصة أن الهتاف كان باللغة الأجنبية.

كان المفرج عنهم يلتقون برفقائهم في المعتقل، فكان بعضهم يُذكّر بعنوانه ويقول بأعين مُغرَوْرِقَة: «اِذهب وقم بزيارة عائلتي.» أما نحن فكنا نصرخ من نوافذنا في اتجاههم: «يا إخواني ما تنساوش!»[س] فكانوا ينفعلون بذلك الجو ويجيبوننا بصوت أجشّ: «قريباً، عمّا قليل سيأتي دوركم!»

في بداية شهر سبتمبر غَادَرَت كتيبة «القبعات الحمراء» التابعة للعقيد بيجار المعسكر في مهمة عملياتية في جنوب البلاد. كُنا نشاهد مغادرتهم خلف شبابيكنا ونحن نرجو أن ينتقم لنا إخواننا في الجبال عما نكّل بنا هؤلاء.

انتقلت سلطة المعسكر إلى كتيبة «القبعات الخضراء» بقيادة عسكري ألماني برتبة مساعد من قدامى الفرقة الأجنبية، وكان يرافقه عساكر إيطاليون وألمان وهولنديون، باستثناء رقيب واحد كان فرنسي الجنسية. ولدهشتنا فقد تحسّنت أوضاعنا، فعمّت

[س] يا أيها الإخوة لا تنسوا ما نعانيه!

النظافة المعسكر وأصبح بإمكان السجناء حلق لحاهم وقص شعرهم، كما سُمِح لنا بغسل ملابسهم التي كانت تعجّ بالقمل. وأخيرا جهّزوا المراقد بالإنارة. وبدأ الضرب يقلّ، ويومان بعد وصول «القبعات الخضراء» حدث شيء مذهل، كان ذلك يوم جمعة: أقيمت أوّل صلاة جماعية بالساحة.

جمع إمام سجين حوله كل من يحسن أداء الصلاة بينما بقية المعتقلين وقفوا في صمت وخشوع يصغون إلى الإمام. فارتفع صوت الإمام — صوت سحيق ومتألِّم — ثم ردّد السجناء آمين بأصوات مبحوحة وفي نسق نشاز. خرجت النساء إلى عتبات المراقد يصلين بصوت خافت، وانهمرت أعين العديد منا بالبكاء. بعد ذلك اختنق ترتيل الإمام وأَجْهَش هذا الرجل، الذي عانى هو الأخر من شتى أصناف التنكيل، بالبكاء. كانت هذه الصلاة المشهودة المقامة في الهواء الطلق، والتضرعات المحمولة على أجنحة الرياح، والأجسام الراكعة الساجدة كلها وكأنها تشهد الله على كل ما عاناه المعذَّبون.

كانت تلك الصلاة بالنسبة لنا جميعا اطْمِئْناناً للقلوب، بل مثلث انفراجاً وصراخاً وتأوهات طالما كبتت بداخلنا نتيجة القمع. ومنذ ذلك الحين طُرِدت فرنسا من قلوبنا نهائياً.

أخذ السجناء يقيّمون حراسهم المتعاقبين. إنّ احترام الصلاة يشبه بعض الشيء احترام العجوز أو المرأة الحامل أو نوم الطفل، كما هو دليل الحضارة. اكتسب الألمان تعاطف المعسكر بأكمله: «هُم قد سمحوا لنا بأداء الصلاة.» وشعرتُ آنذاك بحرج عميق نظراً إلى تاريخهم الذي لا يمكن تناسيه... كما آلمني وضع فرنسا التي أحببتها سابقاً ولم أعد أستطيع الدفاع عنها بسبب ما تقوم به.

لقد أبقاني مرض الزُحار طريحة الفراش ثمانية أيام كاملة كباقي رفيقاتي. وأوشكَت مّا حليمة على الهلاك بسبب نفس الإسهال، وأثناء غدوها ورواحها المتكرر إلى المرحاض سقطت عدة مرات نتيجة الوهن الذي أصابها. فقدم لنا الممرِّض بالمشفى — الأخ ف. — بعض الأقراص من الدواء، وكشف لنا بالمناسبة عن أظافر سبابتيه المنزوعة من جراء تعذيبٍ يتعذّر تصورّه تعرّض له بعد فقدان مخزون كبير من الأدوية اختفى من المستشفى.

وتواصل توافد معتقلين جدد يطوّقهم مظلّيّون من القبعات الخضراء. أخبرنا بعضهم أنه بعد أن أعيدت مدرسة صحراوي إلى الأطفال، لجؤوا الآن إلى التعذيب بداخل أحد الحمامات العربية بشارع سيبيون. ولم تنقطع زيارات «بُوشكّارَة».

بعدها علمنا أنّ المعسكر سيُفتَّش، فشرع المظلِّيّون من القبعات الخضراء في تطهيره، وتكْليس جدران المراحيض، كما قرروا خفض عدد السجناء الذين تكدسوا داخل المعسكر. وتكلّف بملفنا مفتشو الشرطة القضائية، وجاء حوالي عشرون منهم إلى عين المكان لإعادة استجواب السجناء وإعادة التحقيق في القضايا.

تعرّضنا للاستجواب من جديد، لكن — يا لسعادتنا — بلا تعذيب هذه المرة! فبدؤوا في استجواب المسلولين (حوالي المائة) ثم النساء. كانت مناداتنا تتم بمجموعات من اثنين أو ثلاثة داخل قاعة واحدة. وبينما كانوا يستجوبوننا وقوفاً، سمعنا الأخت أُ. تصف التعذيب الذي ذاقته بلغة فرنسية عرجاء مما زاد في تأثير شهادتها.

وبعد مضي أسبوعين علمنا مصيرنا. بعضنا أُفرج عنه، أما من تبقّى منا فإما وُجِّهَ نحو معسكر بني مسوس لمدة ثلاثة أو ستة أشهر أو سُلِّمَ للنيابة العامة أو رجال الدرك حسب طبيعة التهمة: نقل أسلحة، صناعة متفجرات، اتصال، إيواء، تقديم علاج. أما الرجال فبعضهم عيِّن للحبس في معسكرات اعتقال مختلفة (بول كازيل، بوسوي،[ش] الخ) لمدة سنة أو عدة سنوات.

وذات صباح جاء رجال الدرك لاستجوابنا مرة أخرى، وبعد ذلك بأيام أخذوا العديد منا إلى معسكرهم ببئر طراريا (حي بالعاصمة). لم أستطع إيقاف دموعي عند توديعي رفيقاتي والمعسكر الذي عانينا فيه الكثير.

رأيت مغراوي من جديد كلّه مرح يقَشّر الخُضَر في بئر طراريا. أيام قليلة بعد الإفراج عني التقيت أحد الأصدقاء، وقال لي: «هل تعلمين أنّ مغراوي الذي كان يعمل بالمطبخ قد "انتحر" داخل مغطس؟ كان الزواوى[ص] قد أخذوه لاستنطاقه.» كان هذا الشاب — صاحب الشعر المجعد والعينين المعبرتين — يبتسم دائماً داخل المعسكر، وكأنه يريد التعبير عن سعادته لنجاته من التعذيب وإفلاته من شر أعظم. كان يبدو أكثر استرخاء داخل معسكر بئر طراريا ولم يفارقه المرح: كان على وشك المثول أمام النيابة العامة، أي نهاية شهور طويلة من المعاناة. وبينما لم يكن يفصله عن اليوم الموعود سوى القليل، أخذه الزواوى في وقت لم يكن ينتظرهم مطلقا. يا له من مشوار طويل مآله هذا المصير المفزع!

ربما بقي يحتفظ بملامح شبابه العنيد حتى عند موته داخل ذلك المغطس!

[ش] Paul Cazelles, Bossuet.

[ص] مرتزقة جزائريي الأصل يشتغلون كجنود فرنسين ويرتدون لباس أهل مراكش والجزائر.



فدائيات جزائريات في بيت في الجزائر العاصمة: لزهري، وزهرة ظريف، وجميلة بوحيرد، وحسيبة بن بوعلي

2.1.3. *فاطمة بايشي*

المصدر: جميلة عمران، *نساء في خضم حرب الجزائر*، ص 111.[7]

فاطمة بايشي من مواليد 1931، قضت كل طفولتها وفترة مراهقتها بحي القصبة بالعاصمة. كانت تشتغل خياطة بالبيت، كما كانت متحجبة ولا تخرج من بيتها إلا برفقة أحد إخوتها الثلاثة الذين كانوا يفرضون عليها حراسة شديدة. وتشبعت بالأفكار الوطنية التي كانت مؤثرة جداً آنذاك في أوساط حي القصبة. كان النضال بالنسبة لها حلما وتمكنت من تحقيقه بفضل مساعدة أخيها الأصغر. كانت مهمتها الاتصالات وتنظيم الشقة العائلية كمأوى للفدائيين. ألقي عليها القبض سنة 1957 وتعرضت عقب ذلك للتعذيب، واعتقلت بالسجن ثم بالمعسكر إلى غاية سنة 1960. وعاماً بعد ذلك زوّجتها عائلتها حسب التقاليد، ثم أُجبِرَت على إلغاء كل نشاطاتها المهنية والسياسية. وحتى أخوها الأصغر، الذي سبق أن ناضلت معه، حرّض زوجها على منعها من الخروج من البيت.



فاطمة بايشي

بعد إنجابها بنتين رضخت للأمر الواقع، ولكن بعد أن كبرت البنتان ومنذ عشر سنوات تقريبا تشعر فاطمة بنوع من "الاستقلالية": تخرج بحرية وتلتقي مرارا برفيقات الكفاح القديمات. كما تشارك فاطمة في المنظمات التي تناضل من أجل ضمان حقوق المرأة وتحريم التعذيب.

كنت يتيمة الأب، وكان عمر والدتي يقارب الستين عاما، لا تقوى على الشغل، وكان لدي ثلاث إخوة. كان أخي الأكبر مني يشتغل دهان بنايات، وكان أخي الأوسط شريكاً

في أحد المتاجر لتجهيز الأثاث. أمّا فيما يخص أخي الأصغر، فكان قد توقّف عن الدراسة وكان يتعلم الكهربائية عند أحد المهنيين. أما أنا فكنت أقوم بالخياطة بالبيت من أجل مساعدة عائلتي. ورغم صغر سني فقد كنت أتحرق شوقا لأناضل من أجل الوطن. الأناشيد الوطنية التي كنت أسمعها بالقصبة والمنشورات التي كنت أقرؤها هي سبب اندفاعي نحو هذا الطموح. أتذكّر أنه في مناسبات الزفاف وحفلات العقيقة كانت جوقة موسيقية تأتي لإحياء تلك الحفلات — تقيم بالفناء وسط البيوت وتقوم بالغناء — فكانوا دائما في نهاية الحفلة أو وسطها يتوقّفون عن الغناء ويقفون دقيقة صمت إجلالا لضحايا سطيف وغالمة في مجزرة سنة 1945 ثم يواصلون بأناشيد وطنية. معروف عن مواطني حي القصبة ولوعهم بالروح الوطنية. كان الرجال يقومون بالحراسة خارج البيوت ليلا. وكانت الفرق الموسيقية في هذه الحفلات تتميز بالطابع الشعبي: العنقى وخليفة بلقاسم وبعض شيوخ هذا الفن الذين فارقوا الحياة.

كان اخوتي يزودونني دائما بالأناشيد الثورية والمنشورات، وكنت أقرؤها وأحفظها عن ظهر قلب. أتذكر أني كنت صغيرة وكان هناك مكان يشبه المأرب، يقابل مدرسة ابتدائية، حيث يلقي فيه الشيوعيون خطاباتهم. كان ذلك الموضع بشارع مونبونسي (Montpensier) بجانب بائع الفطائر. ولما كنت أخرج من البيت، كنت ألاحظ أنّ ستار المأرب شبه مسدول وبجانبه يقف أحد الرجال للحراسة. كان ذلك بحيّ يقطنه الفرنسيون. وكلما كان الحارس يرى أحد المارة يعرفه كان يتوجه إليه بالقول: «طأ رأسك وادخل!» وغالباً ما كان الحارس فرنسياً ولكنه قد يكون في بعض الأحيان جزائرياً. وذات مرة نال الفضول مني فسألت الحارس: «ماذا تفعلون هنا؟»، فقال: «إنه خطاب من أجل الوطن، هل تريدين السماع يا بنيتي؟» قلت أجل، ودخلت المقرّ مصطحبة محفظتي الصغيرة. كنت أفهم ما يقولون؛ كان حديثهم باللغة الفرنسية مع ترجمة مختصَرة إلى العربية أحيانا كي يفهم من لا يتقن الفرنسية. كانت القاعة دائما ممتلئة، وكان الحارس يسألني لما كنت أهمّ بالخروج: «هل فهمت يا بنيتي؟ لكن يجب أن لا تحدّثي أحداً بالأمر.» فكنت أجيب: «فهمت، متى الاجتماع المقبل؟» وهكذا كنت أذهب من جديد إلى تلك اللقاءات. وذات مرة شاهدني أخي بينما كنت أغادر المقرّ، فانهال علي ضربا وشدّني من



توقيف جزائريين أثناء قمع مايو 1945

ضفيرتي وجرّني إلى أن وصلنا إلى البيت وقال لوالدتي: «إنها تمارس السياسة! ستَرَيْن، سيسجنونها.» فأجبته: «ولماذا تذهب أنت إلى هناك؟ رأيتك أيضاً تدخل المقرّ!» فردّ عليّ: «أنا رجل!» لم يكن بالمقرّ نساء، وعدد الأطفال كان جدّ قليل.

ولما كبرت شيئاً ما زوّجني أهلي بينما لم أكن أتجاوز السادسة عشرة من العمر. وتم الطلاق سنوات قليلة بعد ذلك ولم أنجب أطفالا.

ولما اندلعت الثورة سنة 1954 ابتهج الجميع بها. كنا وقتها أنصار مصالي الحاج إذ شُرِحَ لنا أنّ مصالي يريد الاستقلال بوسائل سياسية. ولكن السياسة لوحدها لا تكفي لتحرير البلاد، ولا بد من السلاح. وإذا لم ينتفض الشعب قاطبة فلن تكون هناك حرية. فتولّينا عن مصالي وناصرنا جبهة التحرير الوطني. كنت شابة آنذاك وأتحدث انطلاقا من وجهة نظر الشباب. كان مصالي يريد تحرير وطنه، وكان يحاول التفاهم الودي مع فرنسا وإقناعها أنّ الجزائر للجزائريين، وأنّ باستطاعة فرنسا البقاء لكن مع منح الجزائريين حقوقهم. أتذكّر جيّدا ملامح وجهه، فكان رجلا متقدماً في السن ذا لحية سوداء يرتدي برنوسا وشاشاً. كنا نغني أناشيد مصالية (نسبة إلى مصالي)، وكنا نغني من أجله. فعلاً كان يناضل في سبيل الاستقلال ولكن كان ذلك بلا جدوى إذ كانت فرنسا تستغله.

في البداية كنا خائفين، يصيبنا الذعر عقب كل عملية مسلّحة يقوم بها المجاهدون. كانت العمليات جدّ متواضعة في أول الأمر: قنبلة صغيرة توضع داخل علبة سردين، طعنة بخنجر، الخ. ورغم ذلك الخوف السائد، كانت جل أحاديثنا تدور حولها، كما كنا نحرص على سماع ما تبثه إذاعة القاهرة. كانت تلك الأخبار تزيد في حماسنا.

لم تكن علاقتي مع اخويّ الذين يكبراني سناً على ما يرام إذ كانا يشعران بنوع من الكبرياء ويرفضان إطّلاعي على ما يحدث. ولكن كنت أستطيع التأثير على أخي الأصغر الذي كان عمره خمسة عشر سنة آنذاك. كنا نرغب في النضال غير أنّ الخوف كان يتملكنا إذ كنا نقطن وقتها بحي سانت اوجين حيث يحيط بنا السكان الفرنسيون. كنت أقول له: «هل تُدرك، ستتحرر الجزائر ونحن لم نقم بأيّ شيء في سبيل ذلك! ابحث لك عن اتصال!» لم يكن بوسعي القيام بذلك لأني لم أكن أستطيع الخروج من البيت. كان جيراننا أناس هادؤون إلى حد الجبن، ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا! حرصنا على إبقاء أمرنا هذا سرياً للغاية.

وأخيراً استطاع أخي الاتصال بأحد الجيران، شاب عمره سبعة عشر عاماً. عندما أخبرني بذلك قلت: «وأنا؟» فأجاب: «أما أنت فلا تستطيعين الانضمام إلى مجموعتنا، ويجب أن تلتحقي بمجموعة أخرى.» فرتّب لي اتصالاً بالمدعو محمد، وهو ملاكم سابق. كان أخي يرافقني أثناء تلك المواعيد، فأخُرج برفقته بدعوى قضاء حوائج البيت ومن ثَمّ كان يمكنني لقاء المعني داخل إحدى الحدائق قريبا من شاطئ بادوفاني (Padovani). حينئذ كان أخي يبتعد شيئاً ما ويتركنا. كان عليّ التوجه إلى القصبة من أجل استلام المنشورات ثم توزيعها إلى من نثق بهم. فكان أحد جيراننا السابقين من حي القصبة، وهو في سن أخي الأصغر، يأتيني إلى البيت كي يصطحبني متحجّبة إلى حي القصبة حيث استلم المنشورات، ثم كنت أوزّعها على الأشخاص الذين أعرفهم بحي سانت اوجين والقبة. كما كنت أجمع الاشتراكات من المعنيين بالأمر، 1000 أو 2000 فرنك في الشهر.

كان هناك فناء كبير يتوسط بيتنا الجماعي الذي تقطنه حوالي عشرة عائلات. وبما أنّ البيوت تحيط بهذا الفناء المركزي، فكان كلما دخل غريب وجد فضول الجميع في استقباله. كانت لي صديقة عمرها أربعون سنة تشتغل منظفة بالسفارة الأمريكية. ولم تكن أقلّ حبّا مني لوطنها فأخبرتها عن نشاطاتي، فأرادت المشاركة في النشاطات وكانت تساهم بالمال وتقوم بتوزيع المنشورات. وقالت لي ذات مرة أن إحدى صديقاتها السابقات طلبت منها إخفاء ابنها، وكان فدائياً مِقْحاماً مُطارداً من العسكر. ونظرا لموقع سكنها بين الفرنسيين خشيَت على نفسها، فرفضت إخفاءَه: «إنه قاتل، لقد قام بعمليات ضد الفرنسيين.» فاقترَحتُ عليها إخفاءَه عندنا في البيت، وبعدما وافق اخوتي على ذلك، استقبلناه بيننا وكأنه فرد من العائلة. كان اسمه الثوري «مانو». ومكث بيننا خمسة عشر يوما ثم التحق بالمقاومة في الجبال حيث استشهد. لم أعلم بذلك إلاّ بعد الاستقلال حين أخبرني أخي بالأمر.

كان مانو يقصّ عليّ العمليات التي يقوم بها، لكني كنت أرفض السماع إليه: «مانو، لا تقصّ علي المزيد، قد يُلقى عليّ القبض وأتعرض للتعذيب وأكون حينها مضطرّة للبوح بأشياء لا يتوجّب عليّ معرفتها.» فكان يردّ عليّ: «اِغْتَمت ولم أعد أتحمل، أريد تَفْريغ ما في رأسي والجميع يقول لي لا تحكي شيئاً، لا تحكي شيئاً.»

وأثناء إضراب الثمانية أيام فبراير 1957، تم توقيف المجموعة بأكملها، ولست أشعر بأدنى خجل إذا قلت أُني أصبت حينها بالذعر. لم أكن أعرف من المجموعة سوى محمد. أُلقي القبض عليهم جميعا بعد أن وشوا ببعضهم البعض... تحت قهر التعذيب... كنت

الوحيدة التي لم تعتقل. كان لا بد من أتفادى أيّ اتصال أثناء الإضراب وطيلة شهر بأكمله عقب ذلك. وكان مقرراً إجراء أول اتصال شهراً عقب انتهاء الإضراب أمام حديقة بادوفاني. ذهبت برفقة أخي لكن لم نجد بالمكان أحداً في انتظارنا باستثناء العسكر. لا أدري ما إذا كان تواجدهم هناك بمحض الصدفة، فانزعجت من الأمر ورجعنا إلى البيت.

ويومين أو ثلاثة أيام بعد ذلك جاءتني فتاة أرسَلها محمد الذي كان محتجزاً بمعسكر بول كازيل. تذرّعت المرسولة برغبتها في خياطة فستان، فأدخلتها البيت الذي كان يتكوّن من غرفة ورواق صغير حوّلناه إلى مطبخ، واتخذنا المطبخ الأصلي غرفة ثانية. كان يوجد بهذه الغرفة أريكة وسريراً، وماكينة خياطة، وحافظة للثياب وصوان صغير بأربعة أدراج. كان البلاط قد تآكل بعامل الزمن فقمنا بتغليفه بمشمع أرضي لتزيينه. ولما دخلت هذه الفتاة البيت قدمتُ لها فنجان قهوة، ثم أخبرتني أنها مرسولة من طرف محمد وأنّ كل المجموعة اعتُقلت. وقالت: «لم يبق سواك، الكلّ أُلقي عليهم القبض، ويمكنك الاطمئنان إذ لن يخبر أحد عنك. أمّا إذا رغبت في تجديد الاتصال فسأتدبر الأمر.» ورجعت مرتان، كانت بلا شك تنتظر أن اجتذبها إلى مجموعة مناضلة، ولكن نصحني أخي بعدم مواصلة ذلك وضمّني إلى شبكته.

كان أخي وإسماعيل يقومان بعمليات ثم يختبئان عندي في البيت. كان الاثنان مجرّد أطفال عمرهما لا يتجاوز السابعة عشر. وكلما عادا من تنفيذ عملية كانت تظهر على وجهيهما علامة الشحوب، فكنت أُدخلهما غرفتي الصغيرة وأُقدّم لهما القهوة وأُسدِل ستار النوافذ. لم تكن والدتي تتدخّل في أمورنا رغم أنها كانت تعلم ما يجري؛ كان سنّها جدّ متقدم.

وكنا قد خبأنا الأسلحة داخل غرفتي الصغيرة: مسدسات من نوع كولت، ورشاشة، ومُلقِّمات. في بداية الأمر كنت أضعها تحت الفراش وبداخل درج الصوان تحت الملابس.

كان سعيد يسكن بأعالي القصبة وذات يوم ذهبت فطومة إلى بيته لتتسلّم قنبلة، ولكن عند القيام بضبطها انفجرت مما تسبّب في موت ضابط القنبلة اسمه برضوان. ونجى كلّ من سعيد وفطومة وتمكنا من الفرار، واختبآ يومين في بيت صديقة فطومة التي كانت تخشى أن يفتضح الأمر ولم تكن ترغب في بقائهما في بيتها. لم يكن لسعيد مكان يلتجئ إليه رغم نشاطه المكثّف وكونه يترأس مجموعة، فقال لفطومة: «حيثما ذهبتِ سأذهب معك، أنت بصفتك امرأة سيسمحون لك بالدخول، أما أنا فليس ملجأ.» كان بعض

الإخوة باتصال مع سعيد فتحدثوا مع أخي حول الموضوع، فاقترح عليهم دون تردّد إيواءَه في بيتنا.

وعند مجيئه ادّعى أخي أنّ فطومة صديقتي وسعيد خطيبها. كان زوج فطومة في السجن في ذلك الحين، فجاؤوا إلى بيتي ثم جاء شخص ثالث اسمه علي. كانت الغرفتان الصغيرتان مزدحمتين: هم الثلاثة، ووالدتي، وإخوتي الثلاثة وأنا. قلنا للجيران أنهم أصدقاء قدامى جاؤوا لقضاء العطلة. كان سعيد يمكث طوال الوقت داخل الغرفة، وكانت تبدو عليه علامة الخوف. كان يذهب إلى الشاطئ من حين لآخر وعلى رأسه منشفة للتخفي. كان سعيد وفطومة وعلي ينتظرون وقت التحاقهم بالجبل.

أثناء ذلك قرّر علي الصغير – الذي لم يكن أكبر من أخي سليم – الذهاب إلى البلد بعد مرور اثنا عشر يوماً. وكان قد سبق له أن اعتُقل وعُذِّب ولم يكن يرغب في أن يتكرر الأمر. غادر إذن علي، وبما أنه كان ينحدر من منطقة القبائل، قال أنه سيذهب عند أعمامه في القبائل وهم سيوصلونه إلى المقاومة في الجبال دون الحاجة إلى انتظار الوثائق.

فبقي بيننا سعيد وفطومة ورضيعها لمدة عشرين يوما. كانت الاعتقالات على أشدها مما أرغمهم على الانتظار وعدم التحرك. ساعدتني الجارات، إذ كانت مريم على سبيل المثال تعينني على الطبخ. وكانت الجارات تتصرفن وكأنهن تجهلن تماماً ما يجري رغم درايتهن بالأمر.

أُلقي القبض على حورية في نفس عملية التوقيف التي اعتُقل فيها سي فضيل وسي بوزيد اللذان قُتلا تحت التعذيب. أما حورية فوافقت على القيام بدور عميل مزدوج فأُطلق سراحها.[ض] وذات يوم جاءتني حورية إلى البيت. كان أحد الإخوة الذين اعتُقلوا قد ذكر لهم عنوان أخي سليم، فجاءتني بلا شك بأمر من العسكر الفرنسي. وبينما كانت تبدو على وجهها علامة الاندهاش قالت: «هكذا، إذن أنت!» أما أنا فلم أتعرّف عليها في الحين: كانت غير محجّبة وشعرها مسبوغ وترتدي ملابس من باريس، فتبدّلت هيأتها تماما. عرفتها بفضل ندبة على وجّهها من جراء ضربة كان قد وجهها لها زوجها بكأس زجاجي. قالت: «أنا حورية، بحثت عنك في كل مكان، ولكن أعْوَزني اسمك وعنوان بيتك. إذن سليم هو أخوك، هو صاحب البدلة البنية الذي كان يرافقك. هل تعلمين أني اعتُقلت

[ض] الجاسوس المزدوج هو الجاسوس الذي يعمل لخصمين. قد تكون حورية هي العميل المزدوج «حورية السمراء» التي جاء ذكرها مرارا في كتاب إيف كوريار، *ساعة الكلونيلات*، دار النشر فايارد، باريس 1970، وأليستار هورن، *تاريخ حرب الجزائر*، دار النشر ألبان ميشال، باريس 1980، ص. 269.

وقضيت ثلاثة أشهر بالمعسكر، والآن أنشط مع الاخوة. وماذا تفعلين أنت؟» قلت: «لا أفعل شيئاً.» لم أكن أثق بهذه المرأة، فواصلتُ: «تعلمين، أنا أسدِّد اشتراكي معك فقط، ولا أرغب التورط في هذه القضايا.» قالت: «كلا، يجب أن تنشطي، من الضروري أن تواصلي.» قلت: «كلا، إذا وجدتِ في نفسك الشجاعة فواصلي، لكن فيما يخصني اتركيني وحالي.»



حواجز التفتيش في حي القصبة

بعد ذلك أرادت التحدث إلى سليم، فناديتُ أخي، فسألها ماذا تريد منه. قالت: «جئت لآخذ الأسلحة.» فردّ عليها: «أي أسلحة هذه؟ ليس لدينا أسلحة.» فقالت: «بل هي عندكم، لا بدّ أن تسلّموا لي الأمانة التي بحوزتكم!» فأجبتها: «الأمانة! قولي للذين حدثوك عن الأمانة أنهم لا يعلمون عما يتحدّثون.» وعادت في اليوم التالي تدّعي أن سي فضيل وسي مختار أرسلوها لتغيير مكان إخفاء الأسلحة، فطردناها مرة أخرى. وقد أراد سعيد تسليمها الأسلحة لكني اعترضت على ذلك من مقر بيتي. فقال: «لا نستطيع الخروج، قد افتضح أمرنا.» فأجبته: «إذن قل لها ليس لدينا شيء.»

عادت من جديد في اليوم الثالث، وفي ذلك اليوم كان كل من فطومة وسعيد قد حصلا على رخصة المرور للالتحاق بالجبال وكانا جدّ مسرورين. قالت لي فطومة: «غدا بعد الظهر سأنقل ابني عند والدتي ثم أغادر. أعلم جيدا أنها سترفض ولكن لا يهم، سأتركه لها على كل حال وأغادر.» في اليوم التالي طَلَبَت من أخي سليم: «هل يمكنك مرافقتي إلى الشاطئ، ستكون المرة الأخيرة، خذني إلى الشاطئ، وبعدها سألتحق بالجبل...» فقال: «أجل، في المساء سآخذكما، أنت وفاطمة.» وفي ذلك اليوم عادت حورية في هيئة أخرى. كانت تغيّر طريقة تصفيف شعرها ولباسها في كل مرة. كان الأمر غير طبيعي: من أين كانت تحصل على المال وليس لديها شغل ترتزق منه؟ كيف فتحت

الدنيا عليها فجأة؟ هذا الأمر جعلني أحذّرهم من هذه المرأة: «هذه المرأة ستنتهي إلى اعتقالنا كلنا، سترون ما أقول لكم.» وللأسف لم يكن مسموحاً لي بإبداء رأيي.

ولما جاءت للمرة الثالثة طلبتُ من سعيد الذهاب إلى بيت إحدى الجارات كي لا تراه، بينما بقيت فطومة بالبيت بصفتها صديقة لي. كنت أشتغل على ماكينة خياطة عندما جاءت حورية وقالت أنه لا بد من تسليم الأمانة. كان سعيد يريد تسليمها الأسلحة، فقلت له: «إنه خطأ فادح، ثم كيف يمكنها نقل الأسلحة؟ حتى إذا افترضنا أنها بطلة، لن تستطيع نقل الأسلحة كلها.» فردّ بالقول: «أنا الأمير وأنا من يأمر، يجب إعطائها الأسلحة وإذا حدث شيء فأنا المسؤول عنه، وانتهى الأمر.»

كنا قد أخفينا الأسلحة داخل وعاء للأزهار. وكنا صنعنا صندوقاً كبيراً يحتوي على قاع مزدوج حيث وضعنا الأسلحة ثم وضعنا عليها التراب والأغراس. وضعنا الوعاء بفناء البيت بين باب بيتنا وباب بيت مريم. وكان بداخله مسدس 6.35 يعود لأخي. جمعنا إذن كل شيء وأعطيناه لهذه المرأة، ثم غادرَت البيت. بعد ذلك أخذت أغسل الخرق الملَطَّخة بالدهن التي لفّت بها الأسلحة. أخفيت كذلك ما تركته من طلقات رصاص داخل موقد للجمر. كان كلّ من أخي وسعيد والطاهر (زوج مريم) قد ذهبوا إلى الشاطئ كي نتمكن فيما بعد أنا وفطومة من الذهاب لوحدنا لأنّ فطومة كانت شديدة الحياء ولم ترغب في الذهاب معهم. وكانت مريم هي الأخرى ترغب في الذهاب معنا.

بينما كانت مريم تحظّر القهوة لأخذها معنا إلى الشاطئ وكنت أغسل الخرق المتسخة، وفي نفس الوقت الذي خرج فيه كلّ من أخي سليم والطاهر من البيت، تمت محاصرتنا من قبل العسكر. كان أحد باعة الخضر يقف بجانب الباب، فقلبوا كل شيء لديه ثم صرخوا: «أين هو سليم؟» كان سليم أمامهم ولكن لم يردّ عليهم أحد. قالوا: «كلكم إلى الداخل! ممنوع الخروج من البيت!» دفعوا الجميع باتجاه ساحة البيت. وواصل سعيد والطاهر مشيهما بتمهل، لكن أخي سليم دخل مسرعا ومرّ بالبيت وقال: «فاطمة، أختاه، قد خدعونا، أدّعي أنك لم تريني.» ثم قفز من النافذة إلى حديقة فيلا إحدى الفرنسيات ومن هناك اجتاز ساحة فيلا أخرى، ثم اختفى.

دخل عسكرٌ ومدنيون من مديرية الأمن الإقليمي (DST) البيت وكنت ساعتها داخل الساحة والخرق لا تزال بين يديّ. سألوني أين أسكن ولما أخبرتهم قالوا: «بالضبط، مقابل السُلَّم، إنها هي.» لا بد أن حورية هي التي أعطتهم المواصفات، فشدّني أحدهم من شعري فصرخت في وجهه: « يا أنذال! يا حقيرين! يا قتلة! تتحدثون عن الفلاقة، أنتم الفلاقة الحقيقيون!» فانهالوا عليّ بوابل من الصفعات والضربات على كل شبر من

جسدي، ثم بدؤوا التفتيش: أنزلوا الخزانة بما فيها أرضا وأفرغوها من كل محتوياتها. كان درج الصوان الأعلى مغلقاً بالمفتاح — كان الدرج لأخي، وكان يضع بداخله مدّخراته ووثائقه — فكسروا الدرج ونهبوا كل ما بداخله. كما نهبوا جهاز عرسي بأكمله وكانت بعض مقتنياته قد أتتني من فرنسا عن طريق المراسلة. سرقوا مجوهراتي هي الأخرى وحطموا ما تبقّى من أغراض.



عملية تفتيش في فناء بيت في حي القصبة



توقيف الفدائية زهرة ظريف في حي القصبة

جرى كل هذا وهم يسألوننا: «أين هي الأسلحة؟» قلت لهم أنّ فطومة صديقة لي وأنّ سعيد خطيبها. فاقتادونا نحن الثلاثة إلى المعتمدية العسكرية. وعذبوني إلى أن كدت أهلك... عذّبوني بالمغطس وأنا مقيدة اليدين والرجلين... لم أكن قادرة على التحدث، ولم أتكلم عن أحد قط. كنت أكرر: «لا أعلم، لا أعلم.» كانوا يسألون: «وماذا تقولين فيما يخص الأسلحة التي خرجت من بيتك؟» فكنت أجيب: «شخص لا نعرفه، هو الذي جاء بها إلى أخي وأرغمه على الاحتفاظ بها في البيت بعضة أيام.» لم أر حورية بعد ذلك، لا أدري إن كانت تتوارى عن أنظاري. وكان النقيب يقول لي: «أيتها الفلاقية الكبيرة، تستطيع جبهة التحرير الوطني الاعتماد عليك، إنكِ لم تقولي شيئاً رغم ما تعرّضت له من تعذيب.»

كان يوجد بالمعتمدية العسكرية كل من فطومة وسعيد وأنا. تم مواجهتي بالسي بوزيد الذي لم يسبق لي معرفته. وبكيت لما رأيته، المسكين قد مزقوا جسده بشفرات الحلاقة،

كما كان شبه عار ومقيّد. قلت له: «لا تخف يا أخي.» كانوا يظنون أني عشيقته بينما لم أكن أعرفه ولم أره قط في حياتي. واجهوني أيضاً بالسي فضيل، ولكن هو الآخر لم أكن أعرفه.

كنت في حالة يُرثى لها، ملابسي ممزّقة لأني رفضت خلعها. هم كذلك، المساكين، كان حالهم مرعب. وبعدما حجزوني أربعة أو خمسة أيام، جاؤوا في اليوم التالي بفلة. هي الأخرى تعرّضت للتعذيب. كانت بغرفة النقيب بينما كنت أنا طريحة الأرض في الرواق. لم أكن أستطيع الكلام، وكنت شبه مخنوقة، فظنوا أنني على وشك الهلاك. كنت أسمع صراخ فلة وهي تُعذّب، فكانت تستنجد بكل ما أوتيت من قوة. كنا نرى بعضنا بعضا لما تُفْتَحُ علينا الأبواب. كانت فلة تنشط في مجموعتنا، غير أنه لم يسبق لي التعرف عليها.

وبعد مرور ثمانية أيام، أخرجوني إلى سطح البناية. كان أخويَّ الاثنان قد اعتُقلا، فكنت أصرخ: «إنهما لا يعلمان شيئا، أنا وأخي الأصغر وحدنا كنا على علم بأمر الأسلحة.» فقالوا: «لماذا إذن لم تخبرينا بالأمر؟» قلت: «كنت خائفة إن أخبرتكم أن لا تصدقونني وفي نفس الوقت قد يقتلني الآخرون. لهذا لم أقل شيئاً، غير أنني لم أفعل أيّ شيء، لم أفعل أيّ شيء.»

قال لي أحد المظلّيّين: «هل تعلمين أني بحق أُشفق عليك. إنّ ما أقول لك محض الصدق، إنك تذكّرينني بوجه جدّ عزيز على قلبي، إنه وجه أختي. لما كانوا يعذّبونك كنت أكاد أنفجر لأنه كان يبدو لي وكأنّ أختي تُعذَّب. لكن ليس بوسعي فعل أيّ شيء. لا عليك، سينقلونك إلى فيلا سانت رفائيل.» بعدها عصبُوا عينيَّ واقتادوني ليلا إلى الفيلا — كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل — ثم رموني داخل القبو حيث بقيت أسبوعا. كانوا يأتون من حين لآخر بوُشاة للتعرّف علي، ولكن حمدا لله لم يعرفني أحد منهم. كنت في البداية أنام مفترشة الأرض، وبعد ذلك أعطوني بطانية.

وذات ليلة، أعادوني إلى البيت على الساعة الثانية. كنت أضحك بفعل توتّر عصبي، وكنت أحاول أنّ أظهر أن الأمور على ما يرام أمام إخوتي اللذان أطلق سراحهما في نفس اليوم وكذا أمام والدتي. ثم قال لي النقيب أنه مقابل الإفراج عني يجب عليّ تبليغه بحركات أخي سليم في حالة عودته إلى البيت. فقلت: «أجل، أجل سيدي النقيب، إذا كان يستحق ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه.» وبقيت يومين دون أكل لأني لم أكن أستطيع تمرير الطعام. يومان بعد ذلك أطلقوا سراح سعيد وفطومة. وقد تمكّنا من الصمود ولم يوحا بأيّ شيء. وبعد الإفراج عنها، اتصلت فطومة بالإخوة في حي الحراش. أما سعيد فلم يجد مكاناً يلجأ إليه فرجع إلى بيته حيث انفجرت القنبلة. وكانوا في انتظاره فاعتقلوه. وهذه

المرة اِنهار تحت التعذيب ولم يترك أحداً إلاّ وأخبرهم عنه، وأصبح كالمجنون، يبوح لهم بكل الأسماء، حتى أولئك الذين لم تكن لهم أية صلة بالموضوع.

ثم جاؤوا إلى بيتنا بصحبة رجل مقنّع، فظنّت والدتي أنه أخي سليم وصاحت: «آه يا بني جاءوا بك ليقتلوك أمامي!» أما أنا فعرفت أنه سعيد لكون أسنانه مغلّفة بالذهب، وقال لي بصوت خافت: «أختي فاطمة لا تخشى شيئاً، لن أوشي بك.» ولكن الأمر كان قد قُضي. كان مقيّد الرجلين بواسطة حبل، فبعدما سحبوا الحبل سقط على الأرض وأوسعوه ضربا بالركلات، ولما نهض المسكين صفعوه على وجهه.

ثم أخذوني إلى مدرسة صحراوي حيث عرّوني من ملابسي وقيّدوني في حجاب قد تركته وراءها إحدى النسوة كانت ضحية هذا المكان. وبعد أن رموا عليّ دلواً من الماء بحيث أصبحت مبللة تماما، عذّبوني بالصعق الكهربائي[ط] مرتين. كان أحد الجلادين يقوم بالتعذيب وهو عاري الصدر، ودخل النقيب الذي اعتقلني المرة الأولى، فرآني وقال: «ماذا تفعل هذه هنا؟» فقدّموا له الملف: نقل أسلحة ومأوى.

التعذيب... كانوا ينادون على أحد الإخوة، فيتقدم وهو يبدو كالأسد، وعند عودته يتغيّر تماماً، فيجرّ رجليه من شدة الإنهاك ويلقي بنفسه في إحدى الزوايا. إنّ ذلك أمر فضيع.

ثلاثة أيام بعد ذلك ألقوا القبض على أخي، واقتادونا إلى معتقل بن عكنون حيث مكثنا خمسا وعشرين يوماً. كان هناك غوسام، وفضيلة، ولطيفة، وغنية، وعقيلة وآخرون. كنا اثنين وعشرين امرأة بعنبر النوم. وفي هذا المعسكر تعرّضنا للاستنطاق من طرف رجال مديرية الأمن القومي (DST) تارةً، ورجال الدرك تارة أخرى، والمظلّيّين من القبعات الحمر تارة أخرى. كانوا يتناوبون علينا وكان العذاب في هذا المعتقل يختلف عمّا تعرضنا له في مدرسة صحراوي. هنا كان الأمر لا يتجاوز الصفعات وبعض الضربات. كانوا يأتون برجال مقنّعين يمرون بين الصفوف ويتصفحّون وجوه المعتقَلين ثم يشيرون في اتجاه البعض فيأخذونهم من بين الصفوف لاستنطاقهم من جديد. لم يكن لدينا أيّ شيء، ولا حتى بطانيات، لا شيء. كانت أرضية إسمنتية نتشاجر فيها من أجل قطع من الورق نتّخذها وسادات. وفي بعض الأحيان كانوا يأتون في كبد الليل بالرجال المقنَّعين، ثم يوجهون صوبنا الأضواء الكاشفة ويسألونهم: «هل تعرف هذه أم تلك؟»

[ط] عذبوني بالجيجين (gégène) وهو مولّد كهرطيسي.

جاءني أحد رجال الأمن الداخلي فرأى ملابسي كلّها ممزقة، فعبّر لي عن تألّمه لسوء حالتي وطلب مني منحه عنوان بيتي ليأتيني بملابس تبديل. فأعطيته قطعة ورق صغيرة عليها العنوان وكلمة قصيرة، فذهب بالفعل لكن لم يرد أحد أن يستقبله في البداية. كان الكل يتوجس منه خوفاً فألحّ في طلبه حتى جاءني بملابس تبديل لي ولأخي. كنت قد فكرت في أخي وطلبت ملابس له هو أيضاً.

بعدها نقلوني إلى بئر طراريا مع أخي، ثم وضعوني في زنزانة ضيقة. كنت وحدي في هذه الزنزانة الفارغة من كل شيء، وكنت أفترش الأرض. لم أتعرض هناك للتعذيب الجسدي غير أنّ التعذيب النفسي والاستنطاقات لم تنته. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام جاءوا بهوغات (Huguette) وفاطمة الزهراء.

لم يكن مسموحاً لي الخروج إلاّ لقضاء الحاجة وذلك مرتين في اليوم، واحدة في الصباح والأخرى في المساء. تعرّضت هوغات لتعذيب فضيع، وكانت تصرخ فيهم: «اعتقلتموني لأنّي شيوعية، فليكن، أجل أنا شيوعية ولن تستطيعوا فعل أيّ شيء، قناعتي هذه تسري في عروقي.» قلت لها ناصحة: «لا تقولي شيئاً، اتركي ذلك في خَبايا قلبك، ولما يُفرج عنك تستطعين عندها الصدع به.» ولكنها لم تقتنع. كنت أنام على الأرض حيث كانت الجرذان تحوم. وكنت متسخة فكانت الجرذان تقترب من شعري فأطردها، ولكن سرعان ما كانت تعود.

يومان قبل أن يُفرجوا على هوغات وفاطمة الزهراء، جاء ضابط برتبة نقيب في عملية تفتيش وسألنا عن أحوالنا. فاعترضَت هوغات على وضعنا إذ كانوا يتركوننا ننام على الأرض بدون بطانيات ولا أيّ شيء، فأمر بأن يعطوا بطانية لكل واحدة منا. شعرت بالراحة بفضل تلك البطانية. قضيت ثلاثة أشهر بين مدرسة صحراوي وفيلا بسانت رفائيل والمعسكرات، ثم في شهر سبتمبر 1957 نقلوني إلى سجن سركاجي.

كنت جدّ مسرورة بسجن سركاجي حيث التقيت بأخوات، وشكرت الله إذ على أني لم أعد أشعر بالخوف لأننا لم نتعرض بعد ذلك للتعذيب. التقيتُ فطومة التي عرفتها من قبل وزيزو وآخرين. أتذكّر أنّ ذلك كان وقت الظهيرة، فقدّموا لي القهوة وتعرّفت على أخوات أخريات. كنت بإحدى زوايا العنبر رقم 2 وبقيت بالسجن سبعة أشهر.

كان الأمر المرعب بسركاجي إعدام المعتقلين. كنت أنام بالعنبر الأقرب من بوابة السجن ولما أفيق كنت أسمع صرير البوابة وهي تُفتح نظراً لمرور أنبوب عريض بجانب فراشي. عندها أفهم ما يجري... وتبدأ فرائصي ترتعد... فأوقظ أخواتي السجينات...

بعدها كنا نسمع الشهيد وهو يصرخ: «الله أكبر! تحيا الجزائر!» فكان كل الإخوة السجناء يردون عليه. وكنّا ننهض جميعنا بسرعة ونمسك بالشبابيك ونتسلّق[ظ] الواحدة فوق الأخرى للوصول إلى مستوى الطبلة وننشد بدورنا: «من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال...» و«إخواني لا تنسوا الشهداء...» وغيرها من الأناشيد. بعض الأخوات كن يغمى عليهن، وكان يصل الحال بأخريات إلى حد الإصابة بالأزمة القلبية مثل كوليت شوراكي، وبعضهن كن تجهشن بالبكاء. ثم سرعان ما كانت القاعة تمتلئ بقوات الأمن الداخلي بمقامعهم بغية إسكاتنا. فكنا نرميهم بكل ما يقع في أيدينا: أقداح فارغة، وأحذية، وقطع الصابون الأسود، وماء جافيل... فكانوا يحاولون ضربنا بهراواتهم ويطلبون من الحارسات إعطاءهم مفاتيح عنابرنا: «أعطونا المفاتيح كي نقمعهم!» لكن الحارسات كن يرفضن. وعقب كل عملية إعدام كنا نرفض الأكل، فنصوم، واللائي لا تؤمن بالصيام كن يمتنعن عن الأكل على أساس الإضراب عن الطعام.

وبعد كل عملية إعدام كانت حالتنا الصحية تستاء. ثم نقلونا إلى الحراش. وكان قد حُكم عليّ بخمس سنوات سجن مع وقف التنفيذ، فخرجت من السجن لكنهم نقلوني إلى معسكر بني مسوس حيث تعرّضت لاستنطاق آخر. كان لديهم كلب كبير من سلالة عسبور، فحاولوا التأثير عليّ كي أعبّر عن ندمي وعن تضامني مع فرنسا، لكن أعلنت لهم عن تمسّكي بجبهة التحرير الوطني الآن أكثر من قبل. فبقيت خمسة عشر يوماً ببني مسوس حيث كنت المرأة الوحيدة وسط ما يقارب الستمائة سجين من الإخوة. كانوا يدللونني بالمأكولات الذي كان يصلهم خلال الزيارات (القفة)، مرة كل أسبوعين.

وبعدها اعتُقلت في تفشون. وجدت بالمكان نفيسة وخالتي يمينة وغنية، الخ. كان يتواجد هناك حوالي مائتي امرأة من كل ربوع الوطن. بعضهن لم يسبق لهن أن خرجن من قريتهن قط، ولم يرين البحر في حياتهن.[ع] كانت هؤلاء النسوة تقول: «جاؤوا بنا إلى هنا للإلقاء بنا في البحر.» كن يصلن إلى المعتقل مباشرة قادمات من الاستنطاق والتعذيب، ملابسهن ممزقة، والبعض منهن رؤوسهن محلوقة. وعند وصولهن كنا نطلب من العاملين بالمطبخ تزويدنا ببراميل من الماء الساخن ثم نساعد الأخوات على الاستحمام ونهيئ لهن ملابس نظيفة، ثم نقوم بغسل ملابسهن المتسخة وبرفئها. لا يمكن تخيّل ما عانته هذه الأخوات... يمكن تأليف كتاب بحاله حول معاناة كل منهن... كانت الغالبية منهن

[ظ] كان للعنابر (بدل النوافذ) كوات صغيرة جد مرتفعة ومحاطة بشباك خشبي أسطواني.

[ع] تقع تفشون على شاطئ البحر.

أميات، فكنا نطلب من الإدارة إعطاءنا عناوين عائلتهن ونكتب لهن الرسائل. كان يصلهن البريد والطرود، أحيانا حتى من فرنسا حيث تقطن عائلتهن، وكان ذلك يُدخل عليهن السرور. كانت كل مناطق الجزائر ممثلة في المعسكر: القبائل، والأوراس، ومغنية، وجهات أخرى من الوطن.

كان بالمكان عنبران للنوم يضم كل منهما مائة سرير، وكان يوجد بداخل كل عنبر خمس وعشرون سريراً من كل جهة، إضافة إلى خمس وعشرين سرير منضدة، أي خمسون سرير لكل جناح. وبين الأجنحة كانت هناك مائدة طويلة حولها مقاعد. على أحد أطراف العنبر كانت توجد ساحة صغيرة وبها ساقية. بنينا مصطبة من الحجر أمام الباب لمنع تسّرب الوحل إلى الداخل، وأنشأنا حديقة صغيرة على جنبي الباب. كانت إحدى الحارسات قد أتت لنا ببعض البذور فزرعناها. كان نمو نبتة أنْف العِجْل ملفت للانتباه إذ تصاعدت أوراقها نحو السماء، كما كانت لنا زهور اللؤلؤ. كانت كل المساحة مزهرة. كنا نقوم بتنظيف العنابر كل صباح، وكانت رائحة التنظيف تفوح من كل جهة. كما طلبنا من أُسرنا تزويدنا بملاءات، وكانت لكل الأخوات اللاتي لم يسبق لهن ترتيب فراشهن من قبل الفرصة لتعلم ذلك بعناية. ثم كان يأتي وقت الغذاء فتأتي الحارسات بالوجبات ونحن نقوم بتوزيعها.

كانت نفيسة لاليام تقرأ الجريدة بالفرنسية وأخرى تترجم إلى العربية ثم ثالثة إلى القبائلية. كان الكل ينصت في سكوت تام. كنا نصلي جماعة الخميس مساء والجمعة. كانت حسيبة تدرّس اللغة العربية وحورية ورتيبة اللغة الفرنسية. كل واحدة منا تعلمت شيئاً ما. وكانت الأخوات اللواتي يحسنّ مهنة الحبك والنسيج يعلّمن الأخريات. كانت بعض الحارسات تشتري لنا الصوف لهذا الغرض. كانت بعضهن جد طيبات، ولكن الأخريات كن شريرات. غادرتنا نفيسة بعد مرور سنة ولكن واصلنا نشاطاتنا. كان وجود نفيسة يكبحنا بعض الشيء ولما ذهبت ازددنا صلابة وصرامة إزاء كل الأخوات.

كانت توجد بالمعسكر مصلحة للحرب النفسية التي حاولت تغيير آرائنا دون جدوى. فقاموا ببناء عمارة خاصة من أجل عزلنا عن باقي السجينات. كنا سبعة عشر ضمن المعزولات. كان تأثيرنا على المجموعة كبيرا. ورغم هذا العزل استمّرت الأخوات في زيارتنا، حيث كنّ يستغلن زيارة قاعة الإسعاف على سبيل المثال.

بقينا تسعة أشهر في هذه الوضعية، ثم أفرج عليّ يوم التاسع من شهر مايو 1960. بعد ذلك كنت أذهب متحجبة لزيارة أخواتي المعتقلات تماما كما لو كنت إحدى أقاربهن.

في سنة 1961 زوّجني أهلي إلى أحد الجيران. كان زواجاً تقليدياً... لم أشتغل بعد الاستقلال، ولم أستطع مواصلة النضال. منعني زوجي من الخروج وحتى من زيارة أخواتي في الكفاح. كانت والدتي أثناء الثورة ترفض أن أناضل غير أني ناضلت. ولكن عندما منعني زوجي... والأولاد. وحتى اخوتي — بما فيهم الأصغر الذي كان معي أثناء النضال — شجعوا زوجي على منعي من الخروج من البيت. قال له: «الآن كل شيء انتهى، لا يجب أن تخرج من البيت بعد الآن، الأمر لم يعد كالسابق.»

لم أستطع الخروج من البيت بحرية إلا لما كبرت بناتي. وقبل ذلك كان زوجي شديد الغيرة. لم أخرج من البيت حتى سنة 1972 أو 1973. بدأت الخروج للمعالجة الطبية، وكان ذلك مشروطاً بمرافقة أخي. ثم شيئاً فشيئاً بدأت الخروج بحرية دون مرافقة. الآن وهن زوجي، ولم يعد يمانع من خروجي، ويقول لي: «إذا رغبت في الشغل، توكلي على الله.» لكن وأنا في سن الخمسين ماذا عساني أن أفعل؟

الآن ألتقي بالأخوات كثيراً إذ يزورونني بالبيت، وأخرج من البيت كلما رغب في ذلك.

3.1.3. *جميلة بوباشا*

المصدر: سيمون دو بوفوار وجيزال حليمي، *جميلة بوباشا*، لندن 1962.[8]

كانت جميلة بوباشا مناضلة شابة في صفوف جبهة التحرير الوطني عندما أوقفت مع والدها وأختها وصهرها. وبعد أسبوع قضته بمركز الفرز بقطاع بوزريعة، تم تحويلها إلى ثكنة حسين داي ثم إلى مركز بني مسوس. وحسب المؤرخة رافائيل برانش: «عُذِّبت طيلة أيام عديدة بالكهرباء، وأحرقت بأعقاب السجائر، وأغطِست داخل مغطس وهي مقيّدة حول عصا على هيئة شواء بسفود. وبعد إتلاف أعضائها التناسلية بالتعذيب بالكهرباء، أُلقيَت على الأرض عارية "ويديها مرفوعتان وجسمها مثبت على الأرض بشريط من القماش مشدود حول خصرها"، ثم شرعوا في "إدخال عُنُق قنينة جِعَة وفرشاة أسنان في فرجها". كان ذلك الاغتصاب هو آخر تنكيل تعرضت له لأنّ الاغتصاب هو أوج الآلام المسلطة واختِتام التعذيب. لم يُطرح لها أيّ سؤال بعد ذلك.»[9] نقدّم للقارئ نص شهادة جميلة بوباشا ونص شهادة محاميتها جيزال حليمي التي تُرجمت من الإنكليزية.

نص شهادة جميلة بوباشا


جميلة بوباشا

في ليلة العاشر إلى الحادي عشر من شهر فبراير 1960 توجّهت قوة قوامها خمسون من الدرك لحفظ الأمن والحركة ومفتشي الشرطة نحو منزل والدي بدالي إبراهيم، في الجزائر العاصمة، على متن سيارات جيب وشاحنات عسكرية، ثم نزلوا بالبيت. كان النقيب د.، القائد بالنيابة بمركز الأبيار، يرافق هذه القوة. كنت وقتها أقيم بمنزل والدي، فَضُرِبتُ بوحشية حتى قبل أن يتم اعتقالي. كان صهري أحمد عبدلّي حاضرا تلك الليلة، فتعرّض لنفس العذاب كما عانى والدي — عبد العزيز بوباشا وهو في السبعين من العمر — من نفس المحنة.

أخذونا نحن الثلاثة إلى مركز الفرز بالأبيار أين انهالوا عليّ ضربا ثانيةً حتى وقعتُ على الأرض مغشيا عليّ من شدة الضرب. وانكسرت أضلاعي بسبب تلك الضربات التي تلقيتها من العسكر بما فيهم نقيب المظلّيّين. ولا زلت إلى يومنا هذا أعاني من ارتجاج الأضلع في الشق الأيسر.

وبعد أربعة أو خمسة أيام نقلوني إلى حسين داي، وقيل لي أنني سأتذوّق هناك «الدرجة الثالثة» [من التعذيب]، وهناك اكتشفتُ حقا ما كانوا يعنونه. كان أول شيء هو التعذيب بالكهرباء. وبما أنّ الأقطاب الكهربائية لا تستقرّ في مكانها عند وضعها على حلمة الثدي، كان أحد الجلادين يثبتها باستعمال شريط لصيق. كما تم حرقي بالكهرباء بنفس الشكل على ساقي ووجهي وشرجي وفرجي. تخلّل هذه الحصص الكهربائية حروق بالسجائر والضرب المبرح و«طريقة المغطس»: كانوا يقيدونني ثم يبقون عليّ فوق حوض الحمام ممددة على عمود ثم يغطسونني داخل الماء إلى أن أوشك على الاختناق.

وبعد أيام قليلة تعرضتُ لأبشع أنواع التعذيب، أبشعها على الإطلاق: «طريقة القنّينة». أولا قيدوني في وضع خاص، ثم دكوا عُنُق القنينة داخل فرجي بضربات قوية متتالية. فصرخت وفقدت وعيي، وبقيت مغشياً عليّ لمدة يومين على ما أذكره.

في الشطر الأول من إقامتي بالأبيار، تمت مواجهتي بصهري أحمد عبدلّي. كان هو الآخر يحمل علامات ضرب وتعذيب فضيعة، ولم ينج حتى والدي الطاعن في السن من مثل تلك البشاعة.

وفي 15 مايو 1960 اتُّهِمْتُ رسميا بـ«محاولة القتل العمدي وتكوين جمعية أشرار.» وعند مثولي أمام النائب العام أدليت بنفس الاعترافات التي انتُزعت مني عنوة تحت التعذيب. كنتُ وقتها لا أزال متأثرة بالصدمة التي خلّفها ذلك العذاب المرعب. وإضافة إلى معاناتي الشخصية يجب اعتبار محنة والدي — صدمة مرعبة بالنظر إلى رجل في سنه — وهو يرى ابنته التي بلغت العشرين سنة من العمر لا تزال مشّوهة الملامح بفعل التعذيب الذي تعرّضت له.

يوجد والدي حاليا في معتقل بني مسوس، وقبل ذلك كانت حالته الصحية قد تدهورت إلى حد القلق على حياته مما استدعى نقله إلى مستشفى مايو حيث قضى هناك حوالي أسبوع.

أما صهري فهو في السجن المدني بالعاصمة. وإنّ حالته تعالج قضائياً بانفِصال عن قضيتي رغم كونهما مترابطتان كليا: أُلقي القبض علينا نفس اليوم، و«الأشرار» الذين اتُّهمنا بالتجمّع معهم هم نفس الأشخاص المطاردين. وسبب هذا الفصل القضائي جد واضح: أنا شاهدة عيان على تعذيب صهري والعكس بالعكس، والسلطات تخشى أن ندلي علانيةً بشهادتنا عن محنتنا المشتركة إذا قاضَونا معاً أمام محكمة مدنية.

رغم أنّي وكلت الأستاذة جيزال حليمي — من نقابة المحامين بباريس — بصفتها محامية للدفاع عنّي منذ عدة أسابيع، إلاّ أنّه لم يُسمح لها القيام بزيارتي إلى اليوم، لأن تأشيرتها لزيارتي في الجزائر صِيغت بطريقة اِستثنائية بحيث لا تبقى سارية المفعول إلاّ لمدة ثلاثة أيام، حصرا من السادس عشر إلى التاسع عشر من مايو 1960.

الأحداث المذكورة أعلاه تشكّل جريمة الحجز غير الشرعي مع ظروف مشددة في تمديد فترة الحجز أكثر من شهر مرفوق بتعذيب جسدي. هذه الجرائم مشمولة ومعاقب عليها طبقا للمواد 341 و342 و344 من قانون العقوبات الجديد.

وبهذه المناسبة، سيادة قاضي التحقيق، أتشرف بتوجيه تهمة بالجرائم المشار إليها أعلاه، ومن ثَم أشكّل نفسي طرفا في الإدّعاء طبقا للقانون المدني لمتابعة هذه الجرائم قضائياً.

الإمضاء: بوباشا، معتقلة تحت رقم 1134، بسجن الجزائر العاصمة، 17 مايو 1960.

نص شهادة جيزال حليمي

سألتُها: «أأنتِ جميلة بوباشا؟» ثم قُلتُ: «أنا جيزال حليمي، محاميتكِ.»

هذه إذن هي المرأة التي من وراء ذلك الخط المرتّب المرهف، وتلك الرسائل المغَفَّلة والمحيّرة التي كُتبت بأسلوب متحفّظ ومهذّب: شَعر كثيف أسود ومعقود داخل حلقة واحدة، وأعين داكنة اللون، وتحَفُّظ في الخطاب والحركة، وقميص نسائي قصير.

قالت: «أنا جدّ مسرورة بمجيئك.» كانت نبرة صوتها هادئة تقترب إلى البرودة، ثم أضافت: «البنات الأخريات كلّهن يتمنّين رؤيتك ولو لنظرة خاطفة.»

قدّمت لها سيجارة، فرفضت بهزّ رأسها، ثم سألتها عن طبيعة الحياة بالسجن وعن عائلتها. كانت تجيبني باقتضاب وبدون عواطف.

إنّ أمور السجن كانت تبدو منظّمة بقدر معقول. مبدئياً كان يُسمح للسجينات استلام الكتب والجرائد، ولكن في الواقع كان ذلك يُعتبر امتيازا ظرفياً يخضع بشكل مطلق لهوى الحارسات. اليوم على سبيل المثال كانت السجينات «معاقَبات»: لا جرائد ولا طرود ولا زيارة. كان أحد السجناء السياسيين الذكور قد أُعدِم (استعمَلَت جميلة كلمة «قُتِل») في الفجر. فاستفاق السجناء باكرا قبل موعد التنفيذ، وأخذ الرجال والنساء على حدّ سواء يرددون النشيد الوطني والأغاني الثورية ساعات طوالا.

قالت: « لم يكن وحده لما قتلوه»، ثم أضافت: «كنا كلنا معه إلى آخر المطاف.»

لأول مرة شعرت بنبرة مختلفة تنطلق من صوت جميلة بوباشا. ثم فجأة شبكت ساقيها وفي الحين رأيت كدمة عريضة بنفسجية اللون فوق الكاحل ولكن لم أرد إطالة النظر آنذاك.

قالت تخبرني: «أنا عضوة في صفوف جبهة التحرير الوطني، أتعلمين هذا؟» ثم تابعت: «أنا سأستشهد في سبيل استقلال الجزائر.»

بدت بنبرتها وكأنها عدوانية بصراحة.

قالت: «يجب أن تُدركي هذا الأمر.»

عندها حان وقت مناقشة موضوع القنبلة للكشف عن خطة الدفاع التي تقترحها. بدأتُ: «هل اعترفتِ بشيء...»، فقاطعت: «أجل، اعترفت. اعترفت بكل شيء.»

عقَبَ ذلك صمت قصير، ثم فجأةً انفجرت بالبكاء وروت قصتها وهي تنشج: «فعلوا بي أشياء فضيعة، أموراً مرعبة... بالأبيار، كانوا... أنظري إلى أضلعي، أنظري بنفسك! والدتي رأتني... كنت لا أستطيع الوقوف على قدميّ...»

توقفَت قليلا ثم واصلت: «والضرب... سلّطوا على والدي الصعق الكهربائي، وقالوا له: "لا إنسانية مع العرب!" أما في حسين داي فكانوا مُتَوَحِّشين، وكانوا يضحكون، الخنازير! بصقوا عليّ. فبعدما جرّدوني من كل ملابسي وأبقوني عارية كليا، بصقوا علي ما شربوه من جِعَة. ثم أخذوا أقطاب الكهرباء وثبتوها — هل تعلمين بماذا؟ بقطع من شريط لاصق — ثبتوها على حلمات ثديي و... يا إلهي لا أستطيع إخبارك... وضعوها في *كل مكان*، هل تفهمين ما أعنيه؟ قال لي الرجل الضخم، ذلك الذي يضغط في نطق حرف الراء: «الآن سترَين ما هو العلاج بالدرجة الثالثة، ثم...»

فجأة بدا على وجهها شحوب وأخلدت إلى الصمت. لم أتفوه بكلمة واحدة خلال كل روايتها. لا بد أنها كانت تشعر أنها تستطيع التحدث إليّ بكل صراحة، لكنها الآن خرست تماما. وبعد ذلك أخَذَت رأسها بين يديها. لم أجرؤ قول أيّ شيء. على أية حال ماذا كان بوسعي قوله؟

لامس شعرها الورق الذي كنت أكتب عليه المعلومات وقبّلتُ جبهتها دون أن تتحرك. عندها سقط مني قلمي، وبسرعة صرخت «آه، معذرة» وانحنت لالتقاطه، فأوقفتها وقلت لها بينما وضعت يدها على يدي: «أخبريني جميلة، باستطاعتك أن تقولي لي كل شيء، تعلمين أنني جئت إلى هنا لمساعدتك.»

عندها تماسكت وهدأ روعها.

قالت: «أجل أعلم لكنه أمر مرعب. إنهم... قد أخذوا قنينة ودكوها في... إني كتبت رسالة إلى النائب العام، كما تعلمين، وطالبته بفحص طبي، ولكني أريد طبيبة امرأة. لا أستطيع قول ذلك لرجل. بإمكانك فهم هذا، أليس كذلك؟ قلت في الرسالة أني أريد أن يتم فحصي من أجل... عذريتي...» ثم فجأة شَعَرَت بشيء من القلق بشأن العواقب الوخيمة (المحتملة بسبب تطرقها إلى ذلك الموضوع) على مجرى محاكمتها، فقالت: «هل أخطأت في تصرفي هذا؟» ربما كان عليَّ استشارتك قبل الإقدام عليه، ولكني لم أستطع كتابة كل ذلك في الرسالة، ولم أعرف كيف أواجه الأمر. لم أكن متأكدة إن كنت قادرة على التحدث في الموضوع على الإطلاق.»

وأخيرا تخلّصت جميلة من الحِمل الثقيل. لقد تكلمت ورُفِع العبءُ عن كاهِلَها [...] لن تبق بعد الآن تختلي لوحدها بهذا السر المرعب الذي يتأكَّلُها من الداخل.

بقيتُ قرابة الساعتين جالسة على الطاولة الصغيرة بقاعة الزيارات أكتب دون توقف. كانت جميلة تجيب على كل أسئلتي وهي تحاول أن تتذكر كل التفاصيل التي أسأل عنها، وتجهد نفسها إلى حد الإرهاق. في بعض الأحيان كانت تتوقف ثم تواصل قصتها بعد استراحة خفيفة. وعند إحدى النقاط، فتحت قميصها وكشفت لي عن علامة وراء ثديها الأيمن أين يمكن مشاهدة دائرة مشكلة من حبات صغار تشبه النِثار. كان ذلك نتيجة ضغط بالسجائر قام به الجلادون على جلدها — ولمس خفيف ثم نزع السيجارة. أما على فخذِها الأيمن فكانت توجد دائرة مشابهة لكنها أكثر عمقا واتساعا: واضح أنّ ذلك تم بغرز عقب السيجارة الملتهب عميقا داخل اللحم.

واصلت جميلة وقالت: «انظري بنفسك.» أخذَت يديّ ووضعَتْها فوق أضلعها لأتحسسها: « لا تستطيعين رؤية شيء تحت قميصٍ مثل الذي ارتديه الآن، ولكني لن أستطع أبدا لبس قميص ضيق ثانية.» فأحسست هناك بنفخ رخو دائري الشكل تحت ثديها الأيسر. قالت: «هذا ما فعل ضابط من المظلّيّين كان برتبة نقيب. سألني إن كنت نادمة على مساعدة ومساندة أعضاء جبهة التحرير الوطني، فحملقت في وجهه —كان يرتدي نظارات — وقلت: «لا! لست نادمة على أيّ شيء! عندها جذبني إليه، هكذا» — شدت بعنف خصلة من شعرها — «وبدأ يضربني بقبضته الأخرى وقام في نفس الوقت بليّ عنقي، ثم لطمني على الجدار، فوقعت على الأرض في حالة إغماء، وعندها بدأ يركلني على مستوى الأضلع. هكذا نشأت النفخة...»

كانت جميلة تجهد نفسها لمواصلة قصتها بمنهجية، بينما واصلت أنا الكتابة.

سألتها: «متى تم إلقاء القبض عليك؟» فأجابت: «ليلة العاشر من فبراير.»

هل هي مخطئة في تحديد التاريخ؟ إنّ بيان السجن يحمل تاريخ 15 مارس، أي نفس اليوم الذي وقفت أمام النائب العام.

أوحيت لها: «تقصدين العاشر من مارس، أليس كذلك؟» فأجابت: «لا!» وكرّرت عليّ نفيها بقوة: «أوقِفت يوم 10 فبراير، كان ذلك ليلا. أبقوني معتقَلة فترة طويلة. كان الأمر قاسيا ولن تستطيعين أن تتخيلي كم كان الأمر صعبا.»

كان ذلك ختام كتابة معلوماتي، فقمت وأنا لا أعلم كيف أعبّر عن الرعب الذي استشعرته باسمها. [...]

فتحتُ باب الغرفة الملحقة.

فجأة قالت لي: «آه، هناك شيء مهم أريد أن أقوله لك.»

اقتربت مني وقالت: «والديّ لا يعلمون. أقصد أنهم يعلمون، ولكن لا يعرفون كل شيء. لا يدرون بفصل القنّينة. لم أقل لهم أيّ شيء بشأن ذلك. هذا أمر جدّ بشع في مجتمعنا...»

جلست جميلة ثانية بانفعال وقالت: «لا أعلم إن كنت لا أزال عذراء بأيّ معنى كان. هل تفهمين؟ أغمي عليّ ولما أعادوني إلى زنزانتي كنت أنزف...»

ثم وجّهت إليّ سؤالاً ربما قد تساءلته مئات المرات: «ماذا تظنين؟ هل فقدت عذريتي؟ ما رأيك بصراحة؟»

بحثتُ بصدق عن الكلمات المناسبة للتخفيف عنها ولطمأنتها قبل أن أغادرها. بالتأكيد أردت أن أردّ لها ثقتها بنفسها وأن أقول أننا بصدد خوض معركة، ولكن كيف ذلك؟ بدأت جميلة تغلق قميصها وتضع شبشبة بأرجلها لتتهيأ للانصراف إلى زنزانتها. كل ما استطعت قوله كان: «هل ترغبين في حبة حلوى؟ لديّ بعض منها بحقيبتي.»

رفضتها هي الأخرى. شرحت لي أنها صائمة اليوم كله، كان كل السجناء السياسيين صائمون من الفجر إلى الغروب. كان دائما الأمر هكذا بعد إعدام أحد المعتقلين.

أخذتُها بذراعي واحتضنتها.

قلت لها: « جميلة، سأعود غدا في وقت باكر، وستكون شهادتك جاهزة للإمضاء.»

لوّحت إليّ بيدها وهي تغادر في مشية متعثرة، ولما ابتعدت مسافة معيّنة صاحت بأعلى صوتها، متاجهلة حارساتها اللاتي كن يستعجلنها: «كل شيء على ما يرام الآن، سأراك غدا!»

2.3. المجاهدات

1.2.3. خضرة بلاّمي

المصدر: جميلة عمران، *نساء في خضم حرب الجزائر*، ص 33.[10]

التحقت خضرة بلاّمي بالمقاومة في جبال الولاية الثانية في شهر يناير 1957 بينما كانت لا تزال طالبة بمدرسة الفاتحي بسطيف، وكان عمرها آنذاك 18 سنة. أُلقي عليها القبض عقب إصابتها بجروح في شهر أبريل 1960، وإثر احتجازها تعرضت للتعذيب وبقيت رهن الاعتقال إلى غاية سنة 1962. وبعد الاستقلال كرّست خضرة حياتها بصفة كلية لرعاية أسرتها ولم تزاول أيّ نشاط سواء كان مهنيا أو سياسيا. بقي الأمر على هذه الحال إلى غاية سنة 1985، بعد أن كبر أبناؤها الأربعة، فشعرت ساعتها بالحاجة إلى المشاركة في النشاط السياسي. وهي اليوم عضو في المجلس الوطني للمنظمة الوطنية للمجاهدين.



خضرة بلاّمي

كنت أدرس بـ«المدرسة»[غ] وبدأت النضال مع أخي وكان هو الذي طلب مني مساعدته. كان يوجد بقبو هذه المدرسة آلات طبع تُستعمل لنسخ المنشورات. كان مدير المدرسة على دراية بالأمر، فبعد إعداد المنشورات كانت تُسلّم إليّ ثم أسلّمها بدوري إلى أخي.

وفي يوم من أيام شهر يناير سنة 1957 جاء أخي لينتظرني على باب المدرسة على الساعة الخامسة مساء. كانت تبدو عليه علامات التوتر، وكان يرتدي برنوسا قصد التخفي وجاء معه بحجاب، فقال: «تحجّبي واتبعيني.»

سألته: «لماذا أتحجب؟ ماذا في الأمر؟»

« تحجبي واتبعيني، ولا تلحّي في السؤال. لا بد أن نغادر الآن، إنّ الوضع "يتدهور".»

[غ] وهو اسم مجموعة مدارس أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

بينما كنت أتحدّث مع أخي كانت بعض طالبات المدرسة واقفات بالقرب منا. وشَعَرَت هذه الطالبات – زبيدة زروق وخيرة زروقي ومايسة كوروغلي[ف] – أنّ ارتداء أخي البرنوس وإتيانه لي بحجاب أمر غير طبيعي، مما جعلهن يقتربن أكثر ويسترقن السمع. طالما بحثت هذه الطالبات عن شخص يقودهن إلى الجبال للالتحاق بالمقاومة، هذه اللهفة والترقب جعلهن يدركن بسرعة لافتة ما كان يجري بيننا من حوار ففاتحنه بالقول: «ساعدنا على الالتحاق معك بالمقاومة.»

ما العمل؟ بما أنهن كن قد فهمن ما يدور فقد كان أخي يخشى أن تبحن بالأمر إن لم يستجب لهن، فاضطر إلى أخذهن معه. كنا إذن أربعة فتيات إضافة إلى شقيقي. توجهنا إلى مكان حيث كان له موعداً وهناك وجدنا ثلاثة طالبات من الثانوية لم يسبق لنا معرفتهن: حورية مصطفاي وفاطمة بن سمرة ومليكة خرشي. غادرنا قسنطينة على الساعة التاسعة مساء على متن سيارة نقلتنا باتجاه مزرعة كبيرة تملكها عائلة دلمي التي كانت تحوي ثلاثة أو أربعة إخوة كلهم مناضلون. كان المجاهدون في انتظارنا حيث استقبلونا بعين المكان. ومكثنا هناك بعض الأيام. وبما أنه لم تُطلع أي واحدة منا ذويها بقرارنا – باسْتِثْناء المتحدِّثة التي كان أخوها يعلم بالأمر – فإن الأولياء أخذوا في البحث عن بناتهم، ثم وصلهم خبر التحاقهن بالمقاومة. ولكن على كل حال كان كلما غاب الابن أو البنت آنذاك، يغلب الظن عند الأهالي أنهم التحقوا بصفوف المقاومة في الجبال.

في بداية الأمر كنت مرشدة، وكنا نتحدث كثيراً مع المواطنين ونشرح للنساء معنى الثورة. لم يكن لديهن أيّ اتصال بالمدن ومن ثَم كنّ يجهلن كل شيء. كنا نشرح لهن هدف الثورة ونبين لهن أنّ غاية الثورة هي تحرير الوطن، ومن أجل أن نعيش أحراراً ولكي يذهب أطفالنا إلى المدارس. إضافة إلى ذلك كنا نقدّم لهن دروساً في التربية وأبجديات الوقاية الصحية لرعاية سليمة لأطفالهن. فعلى سبيل المثال لم تكن هؤلاء المواطنات تغسلن صغارهن حتى يبلغوا السنتين من العمر خشية وفاتهم. فشرحنا لهن أنّ الحقيقة معاكسة لهذا الاعتقاد تماما، أي أنّ الوسخ يميتهم والنظافة تحييهم.

انتقلنا بعد ذلك إلى مقر قيادة الولاية حيث التقينا بالمسؤولين. فسألونا عن ظروف التحاقنا بالمقاومة وعن مستوى تعليمنا، ثم تم اختيار أربعة ضمن مجموعتنا لتكوينهن كممرضات.

[ف] خيرة زروقي ومليكة خرشي كلتاهما استشهدتا في الجبال.

علّمنا الدكتور التومي أعراض الأمراض المعدية وطرق علاجها وكذا كيفية الإسعافات الأولية التي تقدّم للجرحى: توقيف النزيف، وتَقْويم أطراف العظام المكسورة، واستخراج الرصاصات من الجسم، الخ... تعلمنا ذلك على مراحل مما تطلّب الأمر حوالي شهرين من الوقت. وذهب الدكتور التومي إلى حدّ استقدام هيكل عظمي من إحدى المقابر، فنظّفه ثم علّقه للاستعانة به على شرح دروسه. كنا ننظر إلى أنفسنا وكأننا طالبات في الطب! بعد ذلك تم توزيعنا على «المستشفيات». هذه المستشفيات كانت في الحقيقة عبارة عن أكواخ مخبأة داخل الغابة بالقرب من ملاجئ تحت أرضية تستعمل كمستودعات للأدوية ولعلاج أصحاب الإصابات الخطيرة. نحن الثلاثة – مليكة خرشي وحورية مصطفاي وأنا – تم تكليفنا بدُوار جمعة بمنطقة القلّ. كنا نعالج مرضى المستشفى وفي نفس الوقت نقوم بدوريات لتفقّد المواطنين من أجل إسعافهم. كانوا في أغلب الأحيان يعانون من أمراض، كالإسهال والحمى التيفية وحمى المستنقعات التي كانت جد منتشرة بين الأهالي. كنا نحثهم على استعمال الماء المغلّى أو على الأقل الماء الجاري.



ممرضات جيش التحرير الوطني يتفقدن المجاهدين (الصورة الجانبية)

ممرضات جيش التحرير الوطني يسعفن المواطنين (الصور السفلية)





وفي سنة 1958 غيّرت المنطقة وعيِّنتُ في منطقة الميلية. كانت المنطقة تتعرّض لقصف مكثف وكان علينا معالجة المواطنين. كان الأمر جدّ صعب.



لاجئات جزائريات بعد عمليات القصف الفرنسي

وذات مرة تعرضنا لقصف مكثّف. بعد ذلك وجدنا امرأة اسمها مسعودة كانت تقوم بطهي الخبز لنا في دشرة أولاد العربي. وجدناها وقد بُتِرت ساقها، فكانت تتوسل إلينا بالقول: «أجهزوا عليّ لتوقيف آلامي.» بقينا ننظر إليها ونحن عاجزون عن معالجتها. كان المنظر جد مفزع ونحن نشاهدها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

لم يكن لدينا ما يكفي من الأدوية، وكنا نقتصد في استعمال مواردنا. فكنا نستعيد اللفافات المستعملة والضمادات الملطخة بالدماء والقيح إذ كانت تُغسَل وتغلَّى من أجل استعمالها مجددا. لم يكن لدينا الكثير من مادة الكحول للتعقيم مما فرض علينا أن نغلي كل شيء، الأدوات والمِحْقَنات.

حدث قصف خطير تضرّر منه الكثير من المدنيين ببني مسلم، كانت كارثة بحق: عدد كبير من القتلى والجرحى. وكانت هناك فتاة عمرها 18 سنة انقلعت ساقها بشكل شبه كلي – انفصلت تقريبا عن جسدها – فاضطررنا إلى بترها فقطعناها بمنشار. لم نجد لتخديرها قبل عملية البتر سوى حقنة بنج للتخدير الموضِعي، ثم قمنا بعملية القطع بالتناوب. كانت تصرخ من شدة الألم. عمليات من هذا القبيل يصعب على المرء تصديقها، ومع هذا أجرينا بالفعل الكثير منها. بعضها كلّل بالنجاح، وبعض من أجريت لهم مات عقب العملية بفعل مضاعفات الكزاز[ق] على سبيل المثال. لكن فيما يخص هذه

ق مرض جرثومي من مخلفات العمليات الجراحية التي تفتقر إلى وسائل تعقيم صارمة.

الفتاة بالذات فقد نجحت العملية والتقيتُ بالفتاة غداة الاستقلال وكانت تتنقل بفضل ساق اصطناعية. كنا قد بترنا ساقها ليلا في ظلمة تامة وأشعلنا يومها نوعاً من الحطب «التصايدى» للإضاءة، ضوؤه كان يشبه ضوء الشمع. ثم قمنا بخياطة الجرح مع ترك قليل من الفسحة على منطقة الجلد المفتوح تحسّبا لنمو العظام وإلاّ فإن الجرح كان سيتفتق بفعل ذلك النمو. واستعملنا أثناء ذلك خيطاً عادياً وكنا نأمل في قرارة أنفسنا أن تموت في أسرع وقت كي لا تطول معاناتها. بعد ذلك فحصها الدكتور التومي وكان جدّ مسرورٍ بالنتيجة وأسّر إلينا بالقول: «إن هي أفلتت من الإصابة بالكزاز، فإنه يمكننا القول أنها نجت.»



وقع بين أيدينا طفل عمره 12 عاماً يسكن مشتى[ك] لا أتذكر اسمه، كان قد استشهد والده وأخوه. فإثر إحدى عمليات القصف أصيب في ساقيه ولم يُنقل إلينا في الحين مما جعله يصاب ببداية غنغرينة. فحقنّاه بجرعة بنج وقلنا له: «هيا يا عبد الحميد أحسب إلى غاية عشرة.» كان الغرض من ذلك التأكد من فقدانه للوعي غير أنه واصل العد إلى 10 ثم 20 ثم 30 دون توقّف. ولم يكن بمقدورنا الانتظار أكثر فبترنا ساقيه الاثنين ونجحت العملية، ثم صنعنا له عكازين. كانت أمه مسرورة عند مجيئها إلى المستشفى وقالت: «لا يهم إن كان فقد رجليه، المهم أنه على قيد الحياة.» ولسوء الحظ أصيب بالكزاز أياماً بعد ذلك، وارتفعت درجة حرارته وتوقّف عن الأكل ثم تشنّج فكاه وتلوّى عموده الفقري... لم يسبق لي أن رأيت مثل ذلك المشهد. فجاءنا الدكتور التومي وقال لنا: «لا نستطيع فعل أي شيء، سيموت حتما، هناك أمور تتجاوز قدرتنا، ليس بإمكاننا فعل المزيد في مثل هذه الظروف.» عندما جاءت أمه لزيارته وجدته يحتضر فأجهشت بالبكاء: «قد تقّبلتُ فقدانه ساقيه، لكني طمعت في أن يعيش.»

وعند تطبيق خطة شال في سنة 1959، كانت الظروف جدّ قاسية. كان ذلك في عهد الجنرال ديغول، فكانت المناطق المحرّمة تزداد في الاتساع. تصوروا أنه يأتينا اليوم من يقول: «ديغول منحكم الاستقلال.» هذا كلام باطل!

[ك] مشتى يعني مأْوى لفصل الشتاء، ولكن في الجزائر وتونس يشير إلى دشرة أو قرية صغيرة بعيدة عن الناس.

تم تجميع السكان داخل محتشدات مسيجة بأسلاك شائكة لأجل الفصل بين الثورة والشعب. كانوا يدركون أنّ تلك الخطة قد تصيبنا، فأعْوَزنا الغذاء والأدوية والمعلومات، كما زاد الحَرْكة[ل] في إيذائنا. فاضطررنا إلى تقليص المستشفيات، فبينما كان المستشفى يتّسع لعشرين جريحاً، لم يعد يستقبل بعد ذلك إلاّ الجرحى أصحاب الحالات الخطرة. وبالمقابل تكاثرت الملاجئ تحت الأرض.

وفي آخر المطاف كنا نعيش في معظم الأحيان في الملاجئ تحت الأرض. فعلاً اجتزنا مرحلة صعبة للغاية من قصف وتمشيط مستمرين...

وفي شهر أبريل 1960 كنتُ بمَشْتى يُدْعى الواطي قريبا من الميلية برفقة فاطمة الزهراء بولطيف، وكنا ننام بأحد الملاجئ تحت الأرض، وكانت الأمطار غزيرة في تلك الفترة. وذات مساء دخلنا الملجأ بعد أن اتفقنا مع أحد نساء القرية بأن تأتي إلينا في يوم الغد وتنادي «يا سليمة»[م] إذا كانت القرية خالية من العسكر ومن ثَم تُمكنّا من الخروج، وإلاّ مكثنا داخل الملجأ.

وفي الصباح لم نسمع نداءها، ووصل العسكر إلى ملجئنا — لا أدري هل كان ذلك قد حدث بفعل وشاية أم كان مجرد صدفة. ولما أراد أحد المجاهدين الخروج أردوه قتيلا، غير أن العسكر كانوا حريصين على إلقاء القبض علينا أحياء، فألقوا علينا قنابل الغازات الخانقة. كنت برفقة فاطمة الزهراء بولطيف ووالدها — الذي قُتل فيما بعد أثناء اشتباك مسلح — وعبد الكريم مقيدش — وهو زوجي — والحسين وآخرين لا أذكر اِسميهما، وقد قتلا كذلك فيما بعد. بدأنا نفقد الوعي تحت تأثير الغاز، فأسرعنا إلى إتلاف كل ما بحوزتنا: الوثائق والصور والمال. كان العسكر يأمرنا بالخروج. توجّهتُ إلى فاطمة الزهراء وقلتُ لها: «لا أريد أن أموت بفعل الغاز، أفضّل الخروج حتى لو أدى ذلك إلى قتلي»، فخرجنا. وكنا وقتها بلباس عسكري وشعرُنا قصير تغطّيه القبعات، فلم يدرك العسكر أننا نسوة وواصلوا صراخهم: «أرفعوا أيديكم! سلموا أنفسكم! سلموا أنفسكم!» ولكننا لم نرفع أيدينا فَوْراً فأطلقوا علينا النار وأصابونا بجراح. كان قد سبق للعسكر أن قتلوا اِثنين منّا، إضافة إلى إصابتنا نحن الاثنتين، فظنوا أنه لم يبق داخل الملجأ أحد ولم ينشغلوا به بعد ذلك. بفضل ذلك تمكّن الأربعة الذين مكثوا بالداخل من النجاة.

[ل] عملاء جزائريون في صفوف الجيش الفرنسي.

[م] ملاحظة المترجم: سليمة عبارة عن لعبة كلمات. سليمة هو في الحقيقة اسم شخصي لكن يعني في ذات الوقت السلامة والنجاة، ومن ثم يمكن استعماله دون خطر.

دفعنا العسكر بقوة، وواصل أحدهم إطلاق النار علينا مما أسقطنا أرضا. ولما أدارونا على وجوهنا أدركوا أننا فتيات: «إنهن فتيات!» فانهال اِثنان من العسكر علينا ضربا. في ذلك الحين تدخّل أحد العسكر السنغاليين ووجّه بندقيته صوبهما قائلا لهما: «إذا ضربتماهما مجددا فسأحرقكما»، هذا مع كونهما عسكريين فرنسيين. ثم قال العسكري السنغالي: «إنهما مجرد فتيات، لسن حتى نسوة، وأنتما تضرباهما رغم إصابتهما.» ثم طلبوا استقدام مروحية فنقلتنا إلى المستشفى العسكري بالميلية. وأراد أحد العسكر برتبة ملازم أول استنطاقنا ولكني كنت قيد التحضير لإجراء عملية جراحية فرفض الطبيب إجراء الاستنطاق. استمرت العملية من الساعة الثانية زوالا إلى غاية التاسعة مساء. كنت أعاني من نزيف داخلي وتمزق الطحال وأشياء أخرى أجهلها. لا أدري كم بقيتُ في حالة غيبوبة، وبعد العملية كنت لا أزال احتفظ بأحفوض[ن] متّصل بكيس بلاستيكي. مكثتُ خمسة عشر يوما بالمستشفى.

كان رفقائي بالجبل يظنون أنّ إصابتي بسيطة لذا بعثوا فدائيين من أجل تهريبي من المستشفى. فذات يوم جاءني ممرّض وطلب مني النظر من النافدة والتلويح بيدي باتجاه فدائيين كانا مموهين في هيئة نساء محجبات. ولكن وقتها كنتُ في حالة صحية متدهورة ولم أكن أقوى على الفرار فغادرا. بالمستشفى كانت تشتغل ممرضة مسلمة تزود العسكر الفرنسيين بالمعلومات، فوصل الخبر الفرنسيين أقلّ من نصف ساعة بعد الحادثة. حينئذٍ دخل عسكري برتبة عقيد إلى غرفتي وسأل الممرضة: «أهذه هي؟» فردّت بالإيجاب. فقال: «حسنا، إنك لن تقضي هذه الليلة هنا.» بعد ذلك مباشرةً جاؤوا بمحمل ونقلوني إلى زنزانة. إنّ الطبيب الذي عالجني كان طيبا معي فاستغلوا غيابه حيث كان في إجازة.

أبقوني ثلاثة أيام دون إسعاف. بدأت حرارة الجو في الارتفاع، فكنت أعاني من ذلك، ولما جاؤوني بالأكل رفضته قائلة: «طالما لا تعالجونني فسأقضي نحبي ومن ثَم لا حاجة لي في الأكل.» بعثوا حينها ممرضين لتغيير الضمادات، ولكن نوعية الأكل بقيت على حالها. كانوا يأتونني بالأكل الخاص بالمساجين: حمص وعدس وأرز الخ... كان أحد الحراس يخلط عن قصد الحبات القليلة من العدس داخل الطنجرة بملعقة من المربى إمعانا في الإساءة. وبقيت هكذا وحدي بالزنزانة. حقاً كانت أصعب مرحلة في حياتي، أصعب حتى مما قاسيته بالجبل. يصعب عليّ وصف ذلك، فكنت جريحة ومريضة وكنت أحمل بيدي كيساً بديلاً عن أمعائي المتوقفة عن وضيفتها، وإلى جانب هذا كله فقد كانوا يمعنون في تعذيبي

[ن] أنبوب لصرف الصديد.

نفسياً. فكانوا يخرجونني من زنزانتي في أية لحظة، في منتصف الليل أو على الواحدة صباحا، ثم يقودونني لأشاهد أشخاصا تحت التعذيب. كانوا يأتون بي كلما جاؤوا بأشخاص لتعذيبهم: كان أحدهم مشنوقاً والآخر مخنوقاً بالماء بينما كان الآخر معذَّباً بالكهرباء. كانوا يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون تعذيبي. كانوا يخرجونني من زنزانتي، فأحاول المشي حاملة الكيس ولكن رجلي كانتا ترتعشان بفعل المرض... وكذلك نتيجة الخوف. فكنت خائفة، إنه أمر طبيعي، من لم يسبق له أن خاف في وقت من الأوقات؟ كنت أتساءل من هو الموقوف الجديد، ربما سيتهمني. مارسوا علي هذا الأسلوب... ربما عشر مرات، وفي الأخير رفضت التحرك فاضطروا إلى جرّي عنوةً وحملي... وفي النهاية تركوني داخل زنزانتي، وبقيت على تلك الحالة أكثر من شهرين.

وأخيراً جاؤوا بفاطمة الزهراء بعد أن انتهوا من تعذيبها. كنا الاثنتان في غرفة صغيرة، وشعَرنا بالراحة بعد أن اجتمعنا وبعد أن توقّف عنا التعذيب.

لم يكن لدينا ملابس باستثناء منامة المستشفى وقميص حمام قصير نرتديه بالتناوب.

ذات يوم استدعونا للتحقيق القضائي، وهنا رأيت الممرّض الذي طلب مني النظر إلى الفدائيين من النافذة. كان قد عُذِّب بشكل رهيب، فتوجّه إليّ متوسلا: «قولي لهم أني أنا الشخص الذي أخبرتك عن محاولة تهريبك، أخبريهم، لم أعد أتحمّل.» قلت له: «أنا لا أعرفك، كنت مريضة، لا أعرفك، لم أرك أبدا ولست أدري عما تتحدّث.» ونظرا لرفضي الاعتراف أعادوني إلى الزنزانة. هذه المرة لم يكن باستطاعتي الوقوف مستقيمة بسبب انحناء سقف المكان، وكانت البقعة تشبه فرن خباز حيث لا مناص من دخوله منحنية والمكوث فيه كل الوقت في وضعية جلوس. كانت الزنزانة تحت الأرض، فحتى في شهر يوليو كنت أكاد أتجمد من شدة البرد وأنا أسمع من فوقي العسكر يستحمّون ويضحكون.

كان لديّ بطانيتان، واحدة افترشها والأخرى أتغطّى بها. وكان يوجد بالمكان الكثير من الفئران، كانت تحوم من حولي، فكنت أنكمش على نفسي مغطية كامل جسدي بالبطانيات. وكنت كلما تحصّلت على خبز وضعت شطرا منه على مدخل جحور الفئران كي لا يقتربوا مني فأسمع صوت قضمهم. بقيت على هذه الحالة خمسة عشر يوما. ولما جاؤوا لإخراجي من هذه الزنزانة أنكرتُ مجدّدا. إني أجهل مصير ذلك الممرض، أما أنا فقد أعادوني إلى زنزانة فاطمة الزهراء.

وبعدها أحالونا على قاضي التحقيق في شهر سبتمبر ثم نقلونا إلى معتقل تفشون حيث بقينا سنة ونصف.

وبمعسكر تفشون كان الأمر مختلفاً. كان بالمعسكر حوالي مائتين امرأة، وفصلت الإدارة الفرنسية بين النسوة، عنبر نوم للمنحدرات من أصل قبائلي، وآخر للعربيات، أما نحن فقد رفضنا هذا الفصل.

ورغم اعتقالنا لم نتوقف عن النضال، وقمنا بالعديد من الأشياء مثل الإضراب ثم شاركنا في مظاهرات 1961. كنا على علم بذلك وطلبنا من أهالينا أن يجلبوا لنا ملابس ملونة. فجاؤوا لنا بأقمصة حمراء وتنورات خضراء، وقمنا بتقطيعها وصنعنا منها أعلاما. وفي يوم المظاهرات خرجنا إلى الساحة، نحن من جهة والرجال من الجهة الأخرى. كان عدد الرجال يتراوح بين الألفين والألفين وخمس مائة وكنا على اتصال بهم. كانوا يمدّوننا بالأخبار مكتوبة على قطع من الأوراق الصغيرة مخبّأة داخل الخبز.

وغالباً ما كنتُ أتعرّض للعقاب. كانت الزيارات مرة في الأسبوعين غير أنني كنت قليلا ما أرى عائلتي نظرا للعقوبات المطبقة عليّ.

قمنا بإضرابات عن الطعام. كان إضرابنا قبل الإضراب الذي قام به معتقلو فرنسا سنة 1961 م، ربما قبل ذلك بشهر. فأضربنا عن الطعام لمدة اثني عشر يوماً، وطالبنا بحق تزويدنا بمذياع وآلات تصوير والسماح لنا بعدد أكبر من الزوار. كانت الرسائل المكتوبة بالعربية تُرمى دون النظر إليها... رفض المسؤول طلباتنا فباشرنا إضرابا عن الطعام باتفاق مع الرجال. لم تستطع بعض الأخوات تحمل ذلك ورفضن مواصلة الإضراب فمنعناهن من الأكل.

أسبوع واحد أو أسبوعين بعد إضرابنا هذا وصلَنا خبر الإضراب العام، فطبقناه من جانبنا. لم تتحمّله بعض النسوة، خاصة العجائز منهن، فنقلوهنّ على المحامل. كانت بعض المعتقلات قد جئن إلى معتقل تفشون وهنّ حوامل، فوضعن بالمستشفى ثم أعِدن إلى المعتقل مع أطفالهن. لم يتركوهن معنا، ثم فصلوهن مع أطفالهن. بقيتُ بمعتقل تفشون إلى غاية الاستقلال، في شهر أبريل 1962.

عدتُ بعد ذلك إلى والديّ بسطيف، عدت وقد أصبحت متزوجة. كنت قد تَأَهَّلت شهراً واحداً قبل أن يُلقى علي القبض. ورغم اعتقالي لم أنقطع عن مراسلة زوجي عبد الكريم وكنت على علم بكل ما يخصه.

أعدت الاتصال مع المنظمة وبعد فترة قصيرة من عودتي طُلِبَ مني الذهاب إلى قسنطينة حيث قمنا بإحصاء عائلات الشهداء والمفقودين والمجاهدين الذين كانوا على قيد الحياة وكذا المساجين.

حقاً، أعتقد بصدق أنّ شمال قسنطينة — الولاية الثانية — هو الذي عانى الأكثر بالمقارنة مع مناطق الجزائر الأخرى. اضطُرّ سكان الجبال، بالأخص قاطني منطقة الميلية، إلى مغادرة قراهم التي كانت مناطق محرّمة. ووجد هؤلاء السكان أنفسهم تائهين بلا مأوى وكانوا يعيشون في مدن مكوّنة من أكواخ من صفيح وقصدير.

لقد قمنا بهذا الإحصاء إلى غاية تاريخ الاستفتاء الذي جرى في شهر يوليو 1962.

ثم بدأت الحرب من جديد في 25 يوليو 1962، وشعرنا أنّ أمراً غير عادٍ يحصل. كانت الأوامر تأتي من تونس والمغرب، وحدثت انشقاقات بين مسؤولي الداخل والخارج.

وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر وجدنا أنّ كل شيء مضطرب. ودخل جنود جيش التحرير الوطني المتواجدون بتونس البلاد بقوة، بسلاحهم ودباباتهم. والتحق بهم بعض مجاهدي الولاية الثانية. كان هناك رائدان تفاهما مع جيش الخارج. هكذا وجدنا أنفسنا وسط حرب جديدة. وعلمنا في ليلة الخامس والعشرين يوليو أنّ الأمور خطيرة، فغيرّنا مخبأنا ولجأنا إلى مأوىً قديم كان عبارة عن مزرعة. وفي تلك الليلة وجدنا أنفسنا محاصرين تماما كما كنا في عهد فرنسا. كان الرصاص يَأُزُّ من كل جانب.

كانت مجموعتنا تتشكل من خمسة عشر مجاهداً بينهم ثلاث مجاهدات. ولإبانة حالنا آنذاك بالمثل أتذكر أنني خرجت على عجل وليس عليَّ سوى مبذل من القطن وخف في الرجلين لخطورة الوضع. وبكل بساطة كان ذلك اعتقالاً بأتم معنى الكلمة، فوضعونا بالسجن، الرجال من جانب وأنا من الجانب الأخر. ثم جاؤوا بفاطمة ومسعودة. وجدنا أنفسنا بالسجن معتقلين مع عساكر يأتوننا بالغذاء. فعايرتهم بأنهم مرتزقة. اِلتقيت بأحد هؤلاء الجنود اِثنتي وعشرين سنة بعد هذه الأحداث وسألني إن كنت لا أزال أتذكر ماذا كنت أقول لهم: «أيها المرتزقة، لما كنا نحن نموت بالداخل، كنتم أنتم تتمتعون في الخارج وكل شيء في متناولكم، تركتمونا نموت بلا سلاح، وتأتون اليوم لتقتلونا.» صحيح قلت ذلك. بقينا معتقلين بضعة أيام، ثلاثة أو أربعة أيام، ثم أطلقوا سراحنا باستثناء الفدائيين والمسؤولين الذين أبقَوهم معتقلين بين خمسة عشر وعشرين يوماً بقصر الباي، ثم نقلوهم من هناك.

بحثنا عنهم طيلة شهرين في كل مكان ولم نجد لهم أثراً. وفي الأخير استطاعوا الفرار. كانوا قد احتجزوهم داخل قبو في منطقة العلمة، تحت حراسة العسكر. قيل للشعب أنهم (أي المحبوسين) خوَنة تعاملوا مع فرنسا، فأراد المواطنون قتلهم، ففرّوا من مكان احتجازهم تماما كما فرّ السجناء من المعتقلات الفرنسية أثناء الثورة. بالفعل تمكنوا من كسر نافذة القبو وخرجوا منها ليلا ثم تفرّقوا. فأخذ كل واحد اتجاها، وساروا في الغابة ثلاثة أو أربعة أيام. كانوا يمشون على الأقدام في الليل ويختفون في النهار. كيف العمل بما أنّ الوضع كان جدّ متأزم؟ فحصلنا على وثائق مزوّرة وفررنا إلى فرنسا. وشاء القدر أن نلتقي نحن المجاهدون الحقيقيون، نحن الفدائيون والمجاهدات، ونلتجئ إلى فرنسا. بقينا هناك حوالي شهرين. لم نكن نملك شيئاً، لأنه بعد نزولنا من الجبال بقليل تم حبسنا ثم هربنا... ولحسن الحظ ساعدنا بعض الفرنسيين اليساريين. والله إنه ليستحيل وصف حالتنا النفسية في تلك الفترة.

قيل لنا بعد ذلك أنّ الأمور قد تحسنت وباستطاعتنا العودة إلى الوطن غير أننا لم نطمئن.

أقمنا في بداية الأمر بالعاصمة حوالي سنة واحدة. فكنا لا نزال نتعرض للمضايقات. كان ابني الأكبر عمره ثلاثة أشهر فسلّمته لجدته وفررنا إلى المغرب. كان عددنا غير قليل، وهناك عانينا أيضاً، ولم يكن لدينا عمل... ساعدنا بعض الأصدقاء... وحاولت البحث عن شغل. ثم اندلعت الحرب بين المغرب والجزائر، فعُدْنا إلى الجزائر فوراً. ورغم تذمّرنا من الأوضاع ومُطاردتنا، نحن الذين حقّقنا الاستقلال، وكنا أول من رجع إلى البلاد. اعتقدنا أنه إذا كان لا بد من الموت، فليكن على أيدي جزائريين وليس على أيدي المغاربة.

تعرّضنا للمشاكل... زوجي على سبيل المثال وكذا أعمامه الأربعة تم سجنهم. التحق زوجي بالمقاومة مع ثلاثة من إخوانه، فقُتل اثنان منهم، وعاد هو وأخ واحد.

كانت حماتي قد ترمّلت في سن مبكر حيث كان عمرها 24 عاماً وقتها، وكان لها ثلاثة أبناء: زوجي الذي كان عمره 3.5 سنوات، وواحد عمره 2.5 سنوات وثالث عمره 3 أشهر. وكانت آنذاك حاملاً في شهرها الأول. إنها عانت الأمرّين من أجل تربيتهم. وعند اندلاع الثورة التحق الأربعة بالجبال، فمات اِثنان منهم ورجع اِثنان. وفي سنة 1962 جيء لها بجثتين فدفنتهما. وكانت تقضي غالب أوقاتها في المقبرة بين القبرين يد على كلٍ منهما. وبعد ذلك بشهر جاؤوا من جديد لسجن أو قتل ابن آخر، فكادت تفقد عقلها.

بقينا سنة أخرى بالعاصمة. لا يمكن إطلاقا وصف تلك المعيشة بأنها حياة... كان الخوف يترصّدنا. وكنا بلا شغل ولا مال... كنا نقيم في العاصمة بشقة هي ملك لعم زوجي، وكانت عبارة عن غرفتين ومطبخ. وكان كل المجاهدين المطاردين بقسنطينة يأتون عندنا، فأصبحنا من جديد مأوى للمطارَدين.

رجعنا إلى قسنطينة في سنة 1964. كان زوجي يشتغل أما أنا فقد مكثت بالبيت مع الأطفال كما أن حالتي الصحية لم تسمح لي بفعل أكثر من ذلك. كانت حالتي النفسية جدّ متدهورة، ولم أكن أمتلك الشجاعة للقيام بأيّ شيء.

كان زوجي يشتغل بالحزب. لو اشتغل كلانا لما استطعنا الحفاظ على البيت لتربية الأولاد وتعليمهم كي ينجحوا في دراستهم. كان لا بد من العناية بهم... رأيت حالة بعض النسوة اللاتي كان أزواجهن جد مشغولين بالسياسة إضافة إلى عمل شغلهم، ولما تشتغلن هن الأخريات تحدث مشاكل جمة. أنا فضّلت التضحية للمرة الثانية، فاعتنيت بأبنائي وعائلتي وبقيت في البيت حتى سنة 1985.

أما الآن فإني أحاول إحياء الماضي وأبدأ من جديد. شعرت أنني أستطيع فعل شيء ما، لأنه كان لي دور، صغير أو كبير هذا لا يهم، المهم أني قُمت بدور ما، وأعطاني ذلك إمكانية وحق التقييم والنقد.

لكن ثمة شيء أنا نادمة عليه وكان بإمكاني فعله: مواصلة دراستي. في الحقيقة لا أدري لماذا لم أفعله. كان ذلك سيساعدني حتى على تربية أطفالي، وكان بكل تأكيد سيعينني على فهم العالم الحالي بشكل أفضل.

2.2.3. *لويزة إغيل أحريز*

المصدر: ف. بوجي، *لوموند*، 19 يونيو 2000 وح. زروقي، *ليمانيتي*، 29 يونيو 2000.

لويزة إغيل أحريز –كان ليلي هو اسم الحرب– تقيم الآن بالجزائر العاصمة، وهي طبيبة نفسانية من حيث التكوين والمهنة. للسيدة لويزة إغيل أحريز بطاقة خاصة بالمقاومة الجزائرية ووشحت بأوسمة عديدة من قبل أعلى السلطات تكريما لمشاركتها في ثورة تحرير الجزائر. هذه الفدائية السابقة مُعاقة حركياً نتيجة الإصابات والتعذيب الذين تعرضت لهما، وتحصل الآن بسبب ذلك على معاش إضافة إلى منحة التقاعد كطبيبة نفسانية. رغم هذه الوضعية الصحية لا تزال تحتفظ بوضوح الرؤية في سرد شهادتها.

كنت سنة 1955 أدرس بالمستوى النهائي (علمي) بثانوية لازرج (Lazerges) بالعاصمة، وكان عمري آنذاك ثمانية عشر سنة وانخرطت في جيش التحرير الوطني، بالجزائر العاصمة في بداية الأمر. وفي شهر مايو 1957 م كاد العسكر أن يلقي عليّ القبض لولا قليل من الحظ. غادرت إذن العاصمة للالتحاق بكتيبة مقاتلة لجيش التحرير الوطني تتمركز بالمنطقة الثانية من الولاية الرابعة (منطقة العاصمة). تم إدماجي في صفوف ما كان يسمى آنذاك كومندوس الصدام لجيش التحرير. في الثامن والعشرين من سبتمبر 1957 م هاجمتنا مجموعة من الفوج الأجنبي الثالث للمظلّيّين (3eme REP) في منطقة الشبلي بسهل المتيجة. وأُصِبتُ يومها إصابات بليغة نتيجة وابل من الرصاص أصاب شقي الأيمن.


لويزة إغيل أحريز سنة 2001

كنا تسعة مقاتلين نختبئ داخل أحد الملاجئ تحت الأرض. وأظن أنه وُشِي وَشْياً بنا، واستعان العسكر بالكلاب التي مكّنتهم من اكتشاف مغارتنا رغم النباتات الكثيفة التي تغطيها، كما أننا لم نوفّق في تضليل الكلاب برش كميات من الفُلْفُل حول المغارة.

بدأ الاشتباك مع المظلّيّين على الساعة الخامسة صباحا وانتهى بعد أكثر من ساعة. فاستشهد سبعة في صفوفنا، معظمهم أُجهِز عليهم وشاهدتُهم يموتون؛ كانت أعمارهم تتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين عاما. أحدنا استوجب حجّه ليبقى كذلك ما تبقى من عمره، وبقيت أنا اليوم الناجية الوحيدة من المجموعة.

في البداية قدّموا لي علاجا سطحيا من أجل التمكن من استنطاقي، ولكن الذي كانوا يجهلونه هو أننا كنا مهيئين لمثل هذه الاحتمالات في حالة وقوعنا بين أيدي العدو. أتذكر ذلك جيدا، كان علينا التفكير في أشياء خارج التنظيم الذي ننتمي إليه، كالتركيز على أشخاص خارج التنظيم والتعلُّق بهما. لذلك احتفظت باسمين: اسم والدي، الذي كان مسجوناً ومحكوماً عليه ومن ثَمّ لم أخشى عليه، واسم آخر لشخص متوفّى بدون علم الجلادين. وأثناء الاستنطاق اقتصرت على ذكر هذين الاسمين.

عذّبوني بالبارادو (Paradou)، بحي حيدرة الواقع على مرتفعات العاصمة، حيث كان يوجد مقر فرقة المظلّيّين العاشرة تحت قيادة الجنرال ماسو.

كنت ممددة عارية، دائما عارية. كانوا يأتون مرة أو مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وبمجرد أن أسمع قرع جزماتهم تتقدم داخل الرواق ترتعد فرائصي، ثم كان الوقت يبدو أنه لا

ينتهي، والدقائق تبدو ساعات، والساعات أياماً. إنّ أصعب الأيام أوّلها: مقاومة الصدمة الأولى والتطبُّع على الآلام. وبعد ذلك يحدث أمر يشبه التحليق الذهني وكأنّ الأجساد تطفو إلى الأعلى.

كان الجنرال ماسو رجلا فظا وبذيئاً. أما بيجار فلم يكن يتفوه إلاّ بالألفاظ القذرة، لا أجرؤ على نقلها احتراما وحرصا على الأدب العام. لكن الأخطر كان غرازياني.° هذا الرجل كان مُقَزِّزاً لدرجة يستحيل وصفها. كان منحرفاً إلى حدّ التلذذ بممارسة التعذيب. هؤلاء ليسوا بشراً. صرختُ مرارا في وجه بيجار بالقول: «لستَ رجلا إن لم تقم بالإجهاز عليّ!» أما هو فكان يجيبني باستهزاء: «ليس بعد، ليس بعد!» وطيلة هذه الشهور الثلاثة لم أكن أفكر سوى في هدف واحد: الانتحار، ولكن أسوأ أنواع العذاب أنك تريد التخلّص من حياتك بأيّ ثمن كان دون أن تجد الوسيلة لتحقيق ذلك.

عذِّبتُ تقريبا دون توقف من أواخر سبتمبر إلى ديسمبر 1957. ودفعت عائلتي ثمناً باهظا بسبب مشاركتي في تحرير الجزائر. اعتقلوا والدي وتقريبا جميع اخوتي ذكورا وإناثا. عذَّبوا والدتي بالخنق في المغطس طيلة ثلاثة أسابيع متتالية. وذات يوم أتوا بأصغر أطفالها التسعة، أخي الصغير الذي كان عمره لا يتجاوز الثلاث سنوات، أمامها^و وشنقوه... تم إنعاشه وإنقاذه في اللحظات الأخيرة.

كنت على وشك الموت وسط سيل من البول والدم والفضلات، لولا أن أمر غير منتظر حدث. ذات مساء، في الخامس عشر من شهر ديسمبر 1957، بينما كنت أهز رأسي يمينا وشمالا كعادتي في محاولة للتخفيف من آلامي، إذا بشخص يقترب من سريري. كان طويل القامة وعمره حوالي خمسة وأربعون عاماً. فرفع بطانيتي، وبالطبع كنت عارية تماما لما فعل ذلك ثم صرخ بصوت مرعوب: «يا صغيرتي عذبوك! من فعل هذا؟ من؟» لم أجبه. وبما أنه لم يسبق مُخاطبتي بضمير الجمع^ي، كنت متأكدة أنّ كلامه يحتوي على فخ. بعد ذلك أضاف قائلاً: «لا عليك سنعالجك.» هذه الكلمة الأخيرة جعلتني ارتعش هلعا لأنّ في لغة العسكر معناها سنقتلك.

°النقيب غرازياني قتله المجاهدون أثناء إحدى الاشتباكات في منطقة القبائل سنة 1959.

و الأم، هي اليوم امرأة عجوز، ظريفة وحنون لم تَبُح بشيء.

ي في اللغة الفرنسية المخاطبة بضمير الجمع تعبر عن الاحترام.

لم أثق به ساعتها. وفي صباح اليوم التالي جاؤوا لينقلوني إلى مستشفى مايو بباب الوادي حيث بدؤوا بتنظيفي لأن منظري لم يكن يروق أحداً ورائحتي كانت تزكم الأنوف. البول والفضلات ودم الحيض... يمكنكم تخيّل ذلك.

لم أر بعد ذلك الطبيب العسكري الذي أنقذ حياتي ولكني سمعت الممرضات تجبن بعض العسكر: «هذا أمر من الرائد ريشو» كي لا يقوموا ببتر ساقي الأيمن الذي بلغ مستوى متقدماً من الخطورة. أجريَت عليّ العديد من العمليات الجراحية، ونزعوا بعض الرصاصات من جسدي، وجبسوا ساقي متعددة الكسور، ثم أعادوني إلى فرقة المظلّيّين العاشرة، دائما بأمر من الرائد ريشو. فصرت حينها نظيفة جداً، كما تم تنظيف زنزانتي هي الأخرى، وكانت رائحتها عطرة.

الشيء الذي فاجأني هو أنهم لم يعذّبوني بعد ذلك إطلاقا. وفي الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، تاريخ عيد ميلاد المسيح، جاء الرائد ريشو ليلاحظ بنفسه إذا تم تطبيق أوامره. حقاً كنت أحدّث نفسي أيّ ملك هذا الذي مرّ من هنا! لم أتوقف عن ترديد: «هذا غير ممكن! هذا مستحيل! يحدث هذا بعد كل ما عانيته!» جاء ريشو لزيارتي وسألني: «ماذا نستطيع فعله من أجلك يا صغيرتي؟» أجبته: «سيادة الرائد، من فضلكم، السجن المدني.» فضّلت السجن لأنه حتى إذا حرمت من الحرية فعلى الأقل سأعفى من تهديد التعذيب. عندها حملق فيّ، ولاحظت نوعاً من الحزن يلفّ نظرته: «يا صغيرتي، إنكِ تشبهين ابنتي الصغيرة، لم أرها منذ ستة أشهر.» ثم واصل وقال: «لماذا التحقتِ بالمقاومة وأنتِ بهذا السن؟ يجب ترك هذا الأمر للرجال!»

أوفى الرائد ريشو بوعده، ففي صباح السادس والعشرين من ديسمبر تم تحويلي — على المحمل — إلى السجن، ثم أُحِلْتُ على القاضي العسكري، دائما على المحمل، وحُكم عليّ بخمس سنواتٍ سجنا، وبعدها حوِّلت إلى سجن برباروس بالعاصمة في انتظار المثول أمام قاض مدني بتهمة القتل. ومن هناك نقلت باتجاه سجن الحراش ثم احتجزت بسجن بومات (Beaumettes) في مرسيليا، وبعد ذلك في لاروكات (La Roquette)، ثم في أميان (Amiens) حيث أضربت عن الطعام. بعدها اعتُقلت في سجن فران (Fresnes) حيث أُصبت بالتهاب الصفاق ثم في بوردو، وبو، وتولوز. بالطبع تدخّل محاميّ للحصول على إفراجي من أجل العلاج. وبعد معالجتي اعتقلتُ بدهاليز محافظة الشرطة بباريس، عند بابون. ومن هناك وُضعت تحت الإقامة المحروسة في كورسيكا، ثم بأجاكسيو، ثم بكورت ثم بباستيا.

وفي السادس عشر من شهر فبراير هربتُ بمساعدة بعض الأشخاص، غير أني لا أستطيع البوح بهويتهم دون موافقتهم. لا أريد تعريضهم للانتقام من قِبل اليمين المتطرف. ساعدني عدد كبير من المواطنين الفرنسيين، من ضمنهم محاميّ المرحوم مارسيل مانفيل، الذي أعطاني بعض المال لمساعدتي. وقام بعض المناضلين الشيوعيين من منطقة ألب مريتيم بالاعتناء بي إلى تاريخ وقف إطلاق النار، ثم اصطحبوني إلى باريس لأخذ الطائرة نحو الجزائر. كان ذلك يوم الثامن من مايو 1962.



معتقلات جزائريات في سجن Caen في فرنسا

3.2.3. *باية العربي*

المصدر: جميلة عمران، *نساء في خضم حرب الجزائر*، ص. 74.[11]

باية العربي من مواليد 1936 وتنحدر من عائلة جزائرية متواضعة. لما التحقت بالمقاومة في الجبال لم يكن عمرها يتجاوز العشرين عاما، وتعيش ذكريات مغامرتها اليوم كما لو أنها تحدث للتو. إنّ باية تزخر بالنشاط والحُمَيَّا، فتركّز على الفصول الهزلية لما تقص نضالها ولكن لا تتمالك نفسها عن الإجهاش بالبكاء لما تتذكر ما تعرض له رفقاؤها من تنكيل تخلده تلك الصورة للدبابة وهي تمرّ على أجسادهم أحياء. عند انتهاء الحرب تزوجت باية وأنجبت ثلاثة أطفال. وتوقّفت عن النشاط بصفة نهائية غير أنّ ضميرها بكّتها على التخلّي عن السكان القرويين الذين عرفتهم خلال فترة وجودها في الجبال. وبعد أن أصبحت قابلة، أدارت لفترة طويلة مصحة توليد صغيرة كانت تملكها.

التحقتُ بالمقاومة في شهر مارس 1956. كنت وقتها طالبة بمدرسة الممرّضات التابعة للصليب الأحمر وكنت أسكن بحيّ الثغرين وأنزل يوميا مشيا على الأقدام حتى حيّ باب الجديد حيث مقر المدرسة.

كان جارنا مناضلا سابقاً في حزب الشعب الجزائري كما كان صهراً لعلي خوجة[أأ]. لم يتصل بي في البداية ظنا منه أني موالية لفرنسا إذ أنّ والدي كان يشتغل حارسا بمقرّ الحاكم العام. نشطت معه بإحدى خلايا القصبة مع مناضل آخر كان صاحب متجر للعقاقير بأعالي القصبة. مات المسكين، اغتاله العسكر. كان متجره يوجد بشارع إميل موباس (Emile-Maupas)، بنفس الشارع الذي تقع به ثكنة خونة النقيب سارفنت. كان متجره مقرّا للخلية وكنتُ أنقل إليه المنشورات والأسلحة. وبعدما وقع اعتقال في صفوفنا تشتّتت الخلية فأمروني بالالتحاق بالجبال. كنت آنذاك لا أزال شابة في العشرين من العمر، ولكن كنت أخاف من ردّ فعل والديّ، خاصة والدي. نصحوني بعدم إخبارهم بالأمر غير أنيّ أخبرت والدتي فأوسعتني ضربا، وتوجّهَت إليّ قائلة: «كيف تظنين نفسك مؤهلة لخوض غمار الثورة! سيخدعونك!» في سنة 1956 لم يكن والديّ يؤمنان بجدوى الثورة: «أنتِ فتاة، سيعبثون بك. ألا ترين أنهم يسخرون منك؟»

فالتحقتُ إذن بالمقاومة خفية دون إخبارهم. صعدتُ مرتدية حجاباً على متن سيارة بيجو 403 مغطاة وسط صناديق مملوءة بالأسلحة. أتذكّر أننا كنا أخفينا تلك الأسلحة تحت كميات من الخضر: فلافل، وبصل، وفاصولياء. أخذنا معنا زجاجتين من الويسكي رشونا بهما بعض الجنود الفرنسيين عند أحد الحواجز. كنت برفقة أخت علي خوجة وصهره عبد الكريم. بعدها توفّت أخت علي خوجة، لم أعد أتذكر اسمها، قتلها الفرنسيون مع زوجها. استشهد الاثنان في نفس اليوم تحت التعذيب على يد رجال النقيب سيرفنت. تركا وراءهما ولدين أحدهما طبيب الآن.

نقلوني إلى الولاية الرابعة بالمنطقة الأولى بدشرة ثامكميث حيث التقيت بالمجاهدين. كانوا ينتمون إلى كوماندوس علي خوجة. كان جميع أفراد الكوماندوس يلبسون بزة رسمية نظيفة وكأنها كوت للتو. كانوا شُبّاناً حِساناً مُدَجَّجين بالسلاح.

استقبلوني أحسن استقبال وأراحوني ثم قدّموني إلى سكان الدوار: «ها هي أول ممرضة مجاهدة، كما تلاحظون إنّ النساء تشاركن هي الأخريات في الثورة.» أعطوني بدلة ومسدس كولت ظريف، فأدخل ذلك في نفسي السرور. ثم خضت أول تعميد للقتال: أول اشتباك مسلح.

[أأ] علي خوجة شهيد جزائري مشهور فرّ من الجيش الفرنسي والتحق بالمقاومة سنة 1955. كان قائد أشهر فرقة كوماندوس تابعة للولاية الرابعة والتي سُميت باسمه بعد استشهاده في ساحة الوغى.

بينما كنا نتغذى في إحدى منازل القرية —كان يومها أكْلُنا جد دسم تتوسّطه وجبة من اللحم — فإذا بالحارس يأتينا في المساء ليخبرنا: «غادروا في الحين، جاءت فرنسا!» فشرعنا في الخروج الواحد تلو الآخر، والتحقتُ بهم وفعلت مثلما كانوا يفعلون: انبطحتُ أرضا وزحفت مثلهم. كان العسكر الفرنسيون يطلقون النار صوبنا، فاختبأت وسط الأدغال. اجتاز المجاهدون تلك الأدغال ودخلوا في الغابة. أما أنا فمكثت وحدي بالمكان.

كنّا في بداية المباغتة ولم يكن أكثر من سبع أو ثماني شاحنات. كان العسكر يقبلون ويدبرون باستمرار على الطريق وأنا مختفية بالأدغال. تقدّم أحد الجنود من مَخْبئي فتبوّل عليّ ولم أتحرّك إطلاقا. كانت كلّ فرائصي ترتعد. كنت أسمع الطلقات النارية في الغابة. وبعد مرور ساعات غادر العسكر القرية وسمعتُ هدير شاحناتهم يتلاشى.

عقب كل اشتباك مسلح كان من عادة نساء القرية الخروج للبحث عن المصابين أو الأموات. فخرجت إحداهن مع عدد من مواشيها، ولما وصلت بالقرب مني خرجتُ وناديتُها. ففرّت عند مشاهدتي وهي تصرخ: «آه، أُمّي، قد تركَت فرنسا وراءها السنغاليين.»[ببب] تركت ماشيتها وهرعت تصرخ: «هناك الكثير من السنغاليين، الكثير من السنغاليين!» فاختبأ الاخوة الذين كانوا قد خرجوا من جحورهم. أما أنا فخرجت من أدغالي أتقيؤُ والخوف ينهكني. كانت الدشرة فارغة، الكلّ فرّ منها، وبقيتُ لوحدي. رأيت أحد الصبيان فناديته: «تعالى، تعالى، لا تخف!» كان الصبي المسكين يرتعد، فقلت له: «هذه أنا، المجاهدة الجديدة من المنطقة الأولى، لست سنغالية.» عندها خرج الجميع، وكان الاخوة جدّ مسرورين لرؤيتي إذ ظنوا أنه قُبِضَ عليّ. كلهم أخذ في الضحك...

بالجبال كنت أسعف المجاهدين الجرحى وكذا السكان المدنيين. كنت أتنقل بصحبة دليل ومزودة لتقديم الإسعافات. فقمت بتوليد بعض النسوة واغتنمت تلك الفرص لتقديم بعض النصائح الوقائية للأمهات تخص صحة الرضيع. كما عالجتُ المجاهدين المصابين، ولا يزال البعض منهم على قيد الحياة.

[ببب] كانت باية طويلة القامة وسمراء البشرة. لجأ الاستعمار الفرنسي إلى توظيف السنغاليين كمناوشين وقنّاصين مرتزقة في الجيش الفرنسي منذ بداية استعمار إفريقيا، وذلك للياقتهم البدنية. لهم سمعة مرعبة وشينة في الجزائر من جراء تقتيلهم الوحشي للجزائريين وخاصة اغتصابهم للنساء.

كنا في حاجة ماسة إلى الأدوية، فاستعملت ماء الجافيل كثيراً. على سبيل المثال، كان بوعلام مصاباً بغنغرينة في مرحلتها الأولى، فقطعت كل الأجزاء المصابة ونظفت الجرح بماء الجافيل، فنجحت العملية. كان لديّ شيء من غبرة البنيسلين فكنت أضعها على موضع الجرح. في سنة 1956 كان عدد المصابين جدّ قليل، ولكن مع حلول سنة 1957 بدأت عمليات الاشتباكات المسلحة الكثيفة ومعها الإصابات الخطرة. كنت أقوم بالإسعافات الأولية ثم كان يتم نقل الجرحى إلى الخارج. كان لسعيد حرموش — المسؤول عن الشؤون الصحية للولاية — مستشفاه الخاص به.

كنت مسؤولة عن مصحة المنطقة الأولى، وكان عدد من الاخوة يساعدونني في مهامي إلى جانب مساعِدتي حورية بلّمو. أُطلق عليها ذلك الاسم لكونها تنتسب إلى دوار بلّمو. كانت ترغب في الجهاد فرافقتني وقمت بتكوينها. كانت شابة — ربما لا تتجاوز السابعة عشر من العمر — ولم تكن تعرف الكتابة. تم القبض علينا في نفس الوقت ولم أرها بعد ذلك، كما أني أجهل تماماً مصيرها.



الممرضة يمينة ش. في عيادتها في الولاية

بقيتُ بالمنطقة الأولى بين سنتي 1956 و1957. كنت أعرفها جيّدا، فكنت أتنقل داخلها دون الحاجة إلى دليل.

وفي سنة 1957 دُشِّن عهد المناطق المحرمة التي تُقصف على مدار الساعة. وابتداء من تلك الفترة لم نعد نقيم بالقرى، وكنا نقضي كل الوقت داخل الغابات. كنا ننام بالغابة في منطقة جرّاح، فعانينا الكثير. فقدتُ الإحساس برجليّ لشدة البرد فكنت أدلكهما بعطر «بلوم-بلوم»[تت] لتدْفئتهما وأقول في قرارة نفسي: «سيلقون علي القبض بسبب رائحة بلوم-بلوم.» ما عانيناه من شدة ذلك البرد! ومع ذلك فإني دائما استذكر الجهاد بذكريات طيبة. إنها بحق أسعد فترة من حياتي. كان الاخوة غاية في الطيبة. كانوا حقاً بمثابة اخوة حقيقيين، وكنا تماما بمرتبة الاخوة والأخوات. كانوا يغمرونني عطفا، إذ أتذكر مثلاً احتفاظهم بقطعة جبن طيلة 15 أو 16 يوماً كي يعطونني إياها.

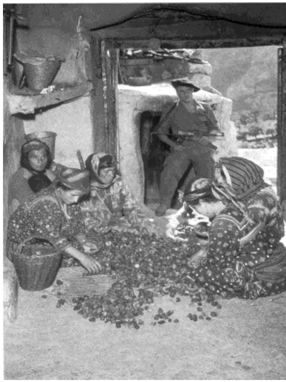
[تت] بلوم-بلوم: نوع من العطر زهيد الثمن، كثير الاستعمال في تلك الفترة.

وفي أواخر سنة 1957 وقع اشتباك فاضطررنا إلى البقاء مختفين طيلة ثمانية أيام. كان ذلك بالقرب من منطقة واد ايسر. نشر العسكر المدرعات (نصف مزنجرات)، وكان الطيران يقصف، فبقينا مختبئين لمدة ثمانية أيام داخل الأدغال. كنت برفقة ثلاثة اخوة، فكنا محشورين حشراً ولم نستطع الحركة. كان غذاؤنا يقتصر على بعض الجذور والنباتات، ولما خرجنا من مخبئنا لم نكن نقدر على المشي من شدة الإنهاك، فكنا نتعثر نتيجة الإرهاق. نجونا تلك المرة، ولكن الاخوة الثلاثة استشهدوا أثناء اشتباكات لاحقة.

وعقب تلك الاشتباكات، غالبا ما كان عدد الأموات مرتفعا ويتجاوز بكثير عدد الجرحى. كانت الاشتباكات تقع باستمرار. ذات مرة أردت المكوث بالقرية بين النسوة بعد أن شعرت بالتعب، فارتديت جبة وجلست بقرب طاحونة من حجر، ووضعت طفلاً كان متسخ الأنف على ركبتي. وبينما أنا كذلك وصل العسكر، كانوا مظلّيين. أرادوا اصطياد دجاجات كانت بساحة القرية دون أن يستطيعوا الإمساك بها، فتوجّه إليّ أحدهم: «أمسكي الدجاجة أيتها القذرة، أمسكي الدجاجة.» فدون أن أشعر أجبته باللغة الفرنسية: «كلا، لن أمسك دجاجتك!» فقال: «آه، إنها المرضة!» ففررت وأخذت أركض وأركض وهم يطلقون الرصاص ورائي دون إصابتي. كانت عناية الله تحفني ذلك اليوم. فجريت حتى دخلت غابة كنت أعرفها جيّدا، ولم يتمكنوا من القبض عليَّ. قام هؤلاء المظلّيّون بكسر كل شيء بالقرية وانهالوا على النساء ضربا. لم يكن الجنود الاحتياطيون بتلك القسوة، ولكن كان أبشعهم على الإطلاق رجال الفرقة الأجنبية.







نساء القرى تحت رقابة وإرهاب جيش المستعمر

قدّمت نساء القرى الكثير من المساعدة، فكنّ يقمن بطهي الخبيز وتدّبر الاتصالات. فمثلا حدث في شهر أوت 1957 أن وقعت فرقة كوماندوس علي خوجة بقيادة عز الدين تحت الحصار في منطقة جرّاح. كان الجنود الفرنسيون قد جلبوا معهم الدبابات ونصف المزنجرات، فنظّمتُ النسوة وطلبتُ من بعضهن حراسة الطريق بينما قامت المسبّلات باختراق الحصار وإخراج أعضاء الكوماندوس من بين شباك ذلك الحصار. فتسللن أثناء الليل داخل منطقة الحصار وزوّدن المجاهدين بالخبيز والبصل كما قمن بدور الدليل لإخراجهم من بين آليات نصف المزنجرات.[ثث]

وفي سنة 1957 التحقت بالمقاومة فتيات أخريات، من بينهن فتيحة وفاطمة الزهراء وغيرهن. أخذني العقيد سي محمد رحمه الله للالتقاء بهن. كنّ يرتدين لباساً جيداً، وعليهن حمر الأظافر، وأحذية أنيقة وسراويل متقنة التفصيل، كما كنّ يضعن رافعات النهدين. كنت انقطعت منذ فترة عن العناية بطريقة لباسي ولم أعد أتذكّر معنى حياة الأنوثة... كنت جدّ قاسية معهن وتعاملت معهن بحدة لا متناهية، كما أخذتُ أختَلِقُ لهن المشاكل، فقلت لسي محمد: «هؤلاء الفتيات تردن الجهاد؟ هذا مستحيل! سيشين بنا إلى فرنسا في أول فرصة.» لم أكن واعية بما فعلته، فقلت: «أنظر إليهن وإلى طريقة لباسهن الأنيق، لن يستطعن تحمّل قسوة الوضع.» فتم توجيههن إلى منطقة أخرى بينما بقيت وحدي مع مزودتي بالمنطقة الأولى.



مجاهدة من جيش التحرير الوطني

وفي نهاية 1957 أمر العقيد سي محمد بتسريح كل الفتيات باستثناء ميمي بن محمد ومريم عبد اللطيف والمتحدثة. وما مكثت في المنطقة إلاّ ميمي. كنت أستطيع البقاء — والاخوة أرادوني أن أبقى — ولكن كنت جد متعبة ومُرْهَقة. التحقتُ بفتيات جبل بوطالب حيث أن العديد منا جئنا من الولاية الثلاثة والرابعة. قضينا ليلة معاً ثم تم تفريقنا حسب الولاية، فذهبتُ مع مجموعة الولاية الرابعة. كانت ثلاث أخوات في مجموعتنا مُرْهَقات فأردن التوقف بإحدى الدشرات لأخذ قسط من الراحة. أما أنا فواصلت المشي

[ثث] للمزيد من التفاصيل عن هذه الحادثة راجع قصة الرائد عز الدين في كتابه *كانوا يطلقون علينا اسم الفلاغة*، دار نشر ستوك، باريس، 1976، ص. 168.

برفقة مريم وحورية بلّمو مع أربعة عشر جريحاً. كنا وحدنا بلا حراسة وكان معظم الجرحى غير مسلحين. كنا نتنقل من قرية إلى أخرى مستعينين بمسبّلات كنّ يدللنا على الطريق.

وفي الولاية الأولى عانينا كثيرا، إذ أتذكر أننا في إحدى المرات قايضنا علبة نشوق مقابل قربة صغيرة من اللبن. كنت طلبت من أحد الاخوة إعطائي علبة نشوق لأعطيها لإحدى القرويات — بهذه المناطق تتعاطى النساء النشوق — فجاءتني بقربة لبن وقليل من التمر. كان أربعة جرحى من ضمن الأربعة عشر لديهم سلاح من نوع «ستاتي» ينطلق تارة ويتوقف تارة أخرى. هذا كل ما كان بحوزتنا، وهكذا عبرنا الولاية الأولى، من دوار إلى دوار، في حالة مزرية حيث قضينا فترات دون أن نجد ما نأكله، وكنا ننام بالغابات بدلا من الدشرات. وقد دامت هذه المعاناة في الطريق حوالي ثلاثة شهور.

وصلنا ذات يوم إلى أحد السهول، سهل مسكيانة، واستضافنا أحد السكان في خيمته. كانوا يعيشون في الخيام في تلك المنطقة. فقدّم لنا الرجل حساء من الشربة، وأتذكر أني كنت مسرورة لذلك، وأكلنا بما فيه الكفاية. وفي تلك الأثناء، كان مُضيفنا قد خرج لإخبار العسكر بوجودنا. فوصلت الدبابات، وجاء أحد الأطفال يصرخ: «جاء العسكر.» كنا نحن الفتيات بداخل خيمة بينما كان الاخوة في خيمة ثانية، فذهبتُ إليهم أخبرهم بالأمر، فردّ عليّ الأخ محمد من المدية — قد استشهد رحمه الله — مشككا في الخبر: «لا تقلقي! لا داعي للقلق!» ثم دخل صاحب الخيمة وقال لنا: «لا، ليس هناك فرنسيون!» وفي الواقع كان هو الواشي.

وفجأةً سمعنا هدير المصفحات والدبابات والطائرات في السماء، فصرخت: «آه محمد، إننا محاصرون.» لن أنس ما حييت ردَّه علي: «يا باية، لا تخافي، عليهم أولاً أن يقتلوني كي يتمكنوا من إلقاء القبض عليكم.» عندها بدأ محمد يطلق النار ببندقيته «ستاتي» فقتل عسكريين. بعدها ألقوا القبض على كل الاخوة — الأربعة عشر — وطرحوهم أرضاً جنباً إلى جنب، ثم مرّوا بالدبابة على أجسادهم. شاهدتهم بأم عيني والفرنسيون يسحقونهم تحت الدبابات وهم أحياء. سأتذكّر ذلك المشهد طيلة حياتي. وقد ترك ذلك المنظر أثراً بالغا في نفسي. كان هؤلاء العسكر من فرقة الدراغون (التنين).

وبعد عملية تفتيش عثروا على وثائق تشير إلى توجّه ستة ممرضات نحو تونس — نحن الثلاثة والثلاثة الأخريات اللواتي توقفن في إحدى الدشرات للاستراحة. أخذوا يفصلون بين الرجال والنساء ثم بدؤوا في ملء الشاحنات بالنساء. عندها قلت: «نحن ممرضات، توقفوا عن تعذيب هؤلاء النسوة!» فأخذونا نحن الثلاثة، وألقوا بنا داخل الشاحنة وهم يضربوننا بعقب الرشاشات. ثم نقلونا إلى ثكنة وحاولوا غسل أدمغتنا. كانوا يريدون كشف

الملاجئ تحت الأرضية وكذا هوية المسؤولين وأشياء كثيرة: كم كان عددنا الخ. وبعد ذلك عزلونا عن بعضنا بعضا.

اعتقلتُ في معسكرات شتّى، بعنابة وسوق أهراس وأماكن أخرى لم أعد أتذكرها. لم أترك معسكراً إلاّ وأُخِذت إليه. بالعاصمة كنت بمعسكر بن عكنون ومعسكر بني مسوس. هناك أيضاً لم أترك مكاناً إلاّ واعتقلت فيه. ثم أخذوني إلى النقيب سيرفنت وخَوَنَتُهُ. كان يريد مني الصعود معهم إلى الجبال في المنطقة الأولى لأدلّهم على الملاجئ والمخابئ. كنت أتعرض للتعذيب يوميا، فعرّوني من كافة ثيابي ثم خنقوني بالمغطس، كما حرقوني بالسجائر، وتعرضت لأشياء كثيرة.

ذات يوم قدم رجال مدنيون من المخابرات العامة (PRG)، اثنان منهم ذوو بنية ضخمة توجّه أحدهم إليَّ ثم أشار لي في اتجاه حي القصبة قائلا: «سنقضي عليهم جميعا، سنبيد كل العرب.» فقلت له: «إذا بقي جزائري واحد، سيحصل على استقلاله!» عندها أراد ضربي، فقاومت وأسقطت أحدهما أرضا، ولكن الآخر ضربني بسلاحه وأسقطني أرضا وسط بركة من الدماء.

وذات مرة أخذني النقيب سيرفنت إلى مقر سكناي، ففتح لنا الباب أخي بوعلام، وعند رؤيتي صاح: «آه، باية، الاخوة جاؤوا بك!» كان يظن أنّي جئت مع المجاهدين. فقام العسكر بتفتيش البيت ثم قال النقيب: «بيتك لطيف، وأبوك يشتغل. لماذا إذن التحقتِ بالجبال؟» فأشرت لهم إلى المساكين المعدَمين أسفل المدينة: «الأمر لا يتعلق بي أنا، بل القضية تتعلق بهؤلاء المعوزين الذين يموتون جوعا.»

حصلت على الإفراج المؤقت، وكان عليَّ التوجه إلى محافظة الشرطة للإمضاء يوميا على وثائق تثبت وجودي. وبعدما سجّلت إحدى الصديقات اسمي في قائمة الكشافة غادرت باتجاه فرنسا.

وفي فرنسا كنت أقيم عند «الأخوات البيض»[جج] حيث عملت بينهن لمدة شهرين كشغالة تنظيف. استطعت الاتصال بالاخوة، عند الطلبة بالمطعم الجامعي بشارع سان ميشال. أرادوا تشغيلي في باريس ولكن أخبرتهم أنّ ذلك غير ممكن نظرا لكوني مجاهدة سابقة، وأريد الالتحاق بالجهاد أو بالاخوة في تونس. فزوّدني بعض الاخوة بوثائق مزوّرة وغادرت فرنسا عبر حدودها مع ألمانيا، وذهبت إلى فرانكفورت ومنها نُقِلْتُ إلى تونس.

[جج] منظمة نصرانية تقوم بالأعمال الخيرية.

استُقْبِلتُ خير استقبال في تونس، وكان ذلك سنة 1959. عملت في البداية كممرضة ثم حصلت على منحة بالمدرسة الدولية التابعة للصليب الأحمر بزيورخ، غير أني لم استطع تعلم اللغة الألمانية ولم أكن مرتاحة في ذلك المكان. فطلبت الذهاب إلى المنطقة الناطقة بالفرنسية في سويسرا حيث زاولت دراستي كقابلة.

الاستقلال... كنت أرى أنه سيجلب لا محالة الرفاهية والاطمئنان لسكان القرى. فقمت بزيارتهم في الدواوير والتقيت بالعائلات وزوجات المجاهدين الذين بقوا على نفس الحال. بقى وضعهم مزر. أيّ باب أطرق؟ بعد تلك الخيبة أصبت بخجل إزاء ذلك الوضع إلى درجة لم أعد أجرؤ على زيارتهم من جديد. انكمشت على نفسي وبقيت أتجرع مرارة ذلك في ركن من حياتي.



3.3. المسبّلات

1.3.3. عائشة كماس

المصدر: جميلة عمران، *نساء في خضم حرب الجزائر*، ص. 104.[12]

ولدت عائشة كماس عام 1912 في دوار صغير ببلدية واد الفضّة. انضمت إلى الثورة سنة واحدة بعد اندلاعها، أي سنة 1955. كانت تؤدي مهام الاتصال وإيواء المجاهدين. كانت أرملة وأماً لولدين، والتحق ولداها بالجهاد واستشهد كِلاهما. وبعد الاستقلال وجدت عائشة نفسها لوحدها. بعد ذلك قطنت في قرية زراعية وناضلت في الاتحاد الوطني للفلاحين الجزائريين من 1973 إلى 1977. وفيت عائشة سنة 1990.

أحيانا كنا نطبخ كل الليل للمجاهدين. وفي الليل كان المجاهدون ينامون ونحن نتولى حراستهم. كانوا ينامون خارج القرية. كنا نضع الأغْلاق على المِعاقِل ونغطيها بالتُّراب والعَوْسَج، ثم نغادر المكان ونحن نجر كيساً مليئاً بأغصان الشجر لـمَحْو الآثار. وعند الفجر كنا نراقب الجبل ونتحقق من خلاءه من العسكر كما كنا نترصّد النيران والطائرات. وفي حال اِنعدام العسكر، كنا نعدّ القهوة ثم نذهب لفتح المِعاقِل، وإلاّ فكنا نمتنع عن الذهاب إليها.



مَعقل للمجاهدين تحت الأرض

كنت أنقل رسائل المجاهدين مشياً، فكنت أُرسَل أحياناً إلى مسافة بعيدة، أحياناً عشرين إلى ثلاثين كيلومتراً. وكنت أحضر لهم حاجات أحملها على رأسي.



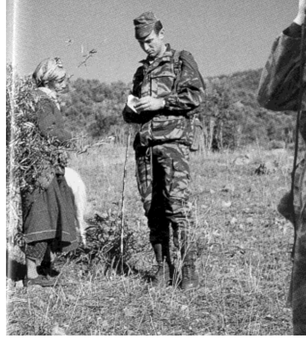


كانت المسبِّلات مجنَّدات ليلاً ونهاراً، تطبخن أكل المجاهدين وتغسلن ثيابهم وتخبّئن مؤونتهم ووثائقهم.

وذات مرة وُشِيَ بي إلى الفرنسيين، وقيل لهم أنني أستضيف ممرضة شُقْريّة. وجاء العسكر فأنكرت أنني أعرفها وقلت لهم أني لم أرها قط. عند ذلك علّقوني إلى شجرة كالِبْتوس وضربوني ضرباً مبرحاً. كان جندي يضربني من جهة وجندي آخر يضربني من الجهة المقابلة، فكسروا يديَّ والعديد من أسناني. كانت خيرة (الممرضة الشُقْريّة) مُخَبَّأة في المِعْقِل تحت إشراف حليمة. وأوقفوا حليمة أيضاً وضربوها، ولكن لم تَبُحْ بأيّ شيء فغادر العسكر القرية بدون اكتشاف أيّ شيء.



العدو يعتقل مسبّلة جزائرية



تفتيش نساء القرى

استشـهد ولـديّ الاثنـين في الجبـال. استشـهد الأول عـام 1957 م والثـاني في سـنة 1958 م. وبعد الاستقلال ذهبت إلى جبل كريشة في الونشريس لأبحث عن ابني. ركبنا على بغال وقطعنا مسافة طويلة. ثم دلّنا رجل على المكان الذي كان يجب أن نحفر فيه، وقال لنا أنه يوجد ثلاثة شهداء بذلك المكان. وعندما نبشنا الجثث عرفت ابني. وجدت حافظته وعرفتها. كان هناك مشْط وإبْرَة وخيط ومِرآة وورقة نَقْد وعشرة رصاصات لرشاشة من طرز ماط (Matt). أخذ كل من رافقني رصاصة وأخذت الخمس رصاصات الأخرى. فوضعت العظام في كيس وأخذتها معي. معروف أنه إذا دفنت جثة بطريقة غير لائقة فإنّ بني آوى تكتشف الجثة فتنبشها ثم تتلفها.

أما ابني الثاني، فإني لم أجده قط.

2.3.3. *طلبية وفاطمة باج*

المصدر: جميلة عمران، *نساء في خضم حرب الجزائر*، ص. 203.[13]

كانت عائلة باج تتكوّن من رب البيت وزوجته فاطمة، وأربع بنات (طلبية – البنت البكر – ومسعودة وفطومة وفريدة – أصغرهن) وولدين (يوسف – ابن بالتبني – ومحمد – أصغرهما). ثلاثة من بين الأبناء التحقوا بالجهاد في الجبال واستشهدوا هناك: مسعودة 25 سنة، وفطومة 24 سنة، ويوسف. ناضلت طلبية وفريدة بالأصنام (الشلف) في صفوف التنظيم المدني التابع لجبهة التحرير الوطني. كان رب البيت متقاعداً وموظفاً سابقاً بجهاز الشرطة الفرنسية، وتوفي في شهر يناير 1959 من شدة الإنهاك جراء الاعتقالات المتتالية والتعذيب. ورغم فقدان زوجها وثلاثة من أبنائها واصلت فاطمة، ربة البيت، مساعدة المجاهدين. وبعد نهاية الحرب تزوجت فريدة وأنجبت أطفالاً وهي الآن تعيش حياة طبيعية. أما فاطمة وابنتها طلبية –

صاحبة الشهادات المثيرة التالية – قد تحطمت حياتهما، وتعيش كل منهما منكمشة على نفسها بالمنزل العائلي في الشلف.

طلبية باج


طلبية باج

كان لي ثلاثة اخوة أصغر مني، وشاركنا كلنا في النضال. كان أخي شاباً في مقتبل العمر، وعند بلوغه سن السادسة عشر التحق بالمعهد الفلاحي لمدينة بلعباس. هو أيضاً لم يتأخر في المشاركة في النضال إذ كان يقوم بسرقة الأحذية الغليظة (من نوع «باتوغاس») من مقر المقتصد ويأتينا بها. كان والدي موظفاً عند الشرطة وأخذ تقاعده سنة 1957 ولكنه لم يستفد من تقاعده وتوفي سنة 1959. التحقت اثنتان من أخواتي – فطومة ومسعودة – بالجهاد في الجبال. وعند كل عملية اشتباك مسلح كان العسكر يأتون إلى البيت ويعتقلون والدي لاستنطاقه حول مريم (اسم مسعودة الحربي) وكذا العالية (اسم فطومة الحربي). كانوا يعتقلونه ثم يطلقون سراحه وبعدها يعتقلونه من جديد وهكذا... وحين أفرجوا عنه آخر مرة كانت حالته الصحية جد متدهورة، وتوفي على إثر ذلك.

وفي سنة 1958 جاؤوا إلى بيتنا بعدما وجدوا قائمة مشتريات لدى مكتبة «لو بروقري» (التقدّم) تضم كمية كبيرة من الورق المقوى «كانسون»، وورق الرسائل، والأقلام، الخ، وعلموا إثرها أنّ فريدة، أختي الأصغر مني، هي التي اقتنت تلك المشتريات لفائدة المجاهدين، فاعتقلوها مع والدي.


فاطمة باج (اسم الحربي العالية)، من مواليد 1935، كانت طالبة، التحقت بالجهاد في الولاية 4 في 1957 واستشهدت سنة 1959.


مسعودة باج (اسم الحربي العالية)، من مواليد 1933، كانت ممرضة، التحقت بالجهاد في الولاية 4 في 1956 واستشهدت سنة 1958.

وللإفلات من مأزقها، اختلقت فريدة قصة أساسها أنها أُرغمت على القيام بتلك المشتريات تحت التهديد. وأعطتهم مواصفات مظللة حول هذا المبْتَزّ فاقتادوها وعلى

وجهها قناع إلى عدة معتقلات لتعيّنه. وبالطبع لم تتعرف على أيّ منهم فانهال أحد العسكر عليها ضربا. وبإحدى المعسكرات، رآها أحد المناضلين الطاعنين في السن وهي تتعرض للتنكيل فقال لها: «قولي أنني أنا هو الشخص الذي يبحثون عنه واستريحي من العذاب.» بعدها وكّلنا لها محام للدفاع عنها، فبقيت شهرين بالسجن ثم أُفرج عنها.

كانت تصلنا رسائل من أخواتي ومجاهدين آخرين يبلغوننا ما يحتاجون إليه. كانوا يطلبون منا بعض أعمال الخياطة وقمصان من الصوف وشارات على قماش. وكنت أقوم بالخياطة بينما كانت والدتي تنسج القمصان. غالبا ما كنت أقوم بنفسي بإيصال صرة الأمانات، فكنت أرتدي حجاباً قديماً ونعلاً بالٍ وأذهب إلى الدواوير المجاورة على بعد خمسة أو عشرة كيلومترات. لم أر مريم مطلقا لكني رأيت العالية خمس مرات: مرتين بدوار أولاد محمد ومرتين بعين مرّم ومرة واحدة بسنجاس. كان يأتي إليَّ مسبل ويلقي عليَّ كلمة السر «عيد سعيد» فأتبعه.

وفي أول مرة كانت العالية برفقة جنود، اثنان منهم لا زالا على قيد الحياة: سي علي وسي عبد الله. أما الآخرون، حمدان ورشيد وقدور فقد استشهدوا كلهم. أتذكر ذلك اليوم، إذ كانت العالية ترتدي حذاء من نوع موكاسان منحنٍ تشده بحبل... [تجهش المتحدثة بالبكاء]. كشفت عن رجليها وعليهما أثر الحروق وتدميان. كان بالحذاء ثقوب من شدة المشي. وشعرها! كان من قبل شعرها ذا جمال يبهر وكان يلمع، أما في ذلك الحين فقد كان شعرها يعج بالقمل. أتذكر أنها حكّت رأسها ونزعت من شعرها قملة. كانت ترتدي قميصا قصيرا به أشكال مربعات، وسروال «جينز» وكانت تحمل مسدساً صغيراً من نوع 6.35. كان يغمرها الفرح فقالت: «انظري لديّ مسدس»، ثم وضعته في جيبها.

لم يرغبا في أن ألتحق بهما رغم إصراري على ذلك. كانا يردّان عليَّ: «من الذي سيبقى في المدينة إذن؟ نحن بحاجة إليكم في المدينة.»

ولما كنت أذهب معهما، كنت أتذكر البؤس والفقر الذي كانا يعيشان فيه. رأيت العالية مرة مع عدد من المجاهدين داخل كوخ أحد القرويين. كان الغذاء وجبة من سمك السردين، وكانوا جد مسرورين بأكل السردين — مأكل فاخر بالنسبة لهم... وصلتُ وقت الغذاء فطلبوا مني أن أشاركهم فرفضت لأني رأيت أن الكمية المتوفرة لا تتجاوز العشر حبات من السردين. حينها لاحظت نظرتهم إلى بعضهم البعض وملامح الفرح على وجوههم بسبب امتناعي من مقاسمتهم تلك الوجبة. كان نصيب كل واحد منهم حبة

سردين وربما حبّتان. ولما كنت أحضر بعض الحلوى، كانت العالية تقفز لالتقاطها. في الحقيقة لم يخالفها رفقاؤها، كلهم كانوا محرومين.

لم أر مريم بالجبال ولا مرة واحدة. وبلغني خبر استشهادها في شهر مارس. كنت صعدت إلى الجبل لزيارة أختي الأخرى، العالية، التي كانت مع شفيقة والأخوين الخطيب. فتوسلت إليهم كي يبلغوني عن أخبار مريم. عندها أخذتني شفيقة على انفراد وقالت: «لقد استشهدت ولكن ليست العالية على علم بذلك.» كنت أصّر على معرفة الحقيقة والآن لما عرفتها... [تجهش المتحدثة بالبكاء]. في ذلك اليوم أخبرتني شفيقة عن استشهاد مريم بلا علم العالية. وفي نفس اليوم أخبرتني العالية عن استشهاد خطيب شفيقة التي كانت تجهل الأمر تماماً. كانت شفيقة تخفي الخبر عن العالية والعكس بالعكس. كلهم استشهدوا: مريم والعالية وشفيقة وخطيبها، والأخوين الخطيب. هذه المرة كانت العالية في حالة أحسن. كانت تلبس حذاء باتوغاس، ولم تكن تتألم من رجليها، كما كانت ترتدي قشابية وتشدها بحزام. كم كن شجاعات! لم تمتن بمحض الصدفة بل اخترن ذلك الدرب بقصد. وفي منطقتنا، تم تسمية الكثير من الفتيات بأسماء العالية ومريم تخليدا لهن...

وعند نيل الاستقلال توقفتُ عن النضال. قمنا بواجبنا وتركنا الدور للآخرين... التعب نال منا إلى حد كبير...

فاطمة باج


فاطمة باج

جاءت مريم في زيارة من العاصمة لتودعنا قبل التحاقها بالمجاهدين. ماذا كان بإمكاننا قوله؟ كان ذلك من أجل الوطن، وانتهى الأمر. كنا نعلم أن لهن نشاطات نضالية بعد ما عثر والدها ذات يوم على كمية من الأدوية وأدوات التطبيب بين أغراضهن. كانت آنذاك طالبة ممرضة. ونحن أيضاً كنا مسبّلات. كنت أحبك القمصان، والألثمة، ثم كان زوجي ينقلها داخل صندوق على متن دراجته النارية كأنه ذاهب إلى العمل، ويسلمها إلى أحد الأشخاص بمتجر ليوصلها إلى المجاهدين.

لم نكن ساعتها نشعر لا بالتعب ولا بالعناء.

رحمة الله على من استشهد وأمد الأحياء بالعافية ووفق الله كلاً حسب نيته.

كان الفرنسيون يهزؤون من زوجي. كان لا يقضي بيننا في البيت فترة خمسة عشر يوم حتى يعتقلونه من جديد. كانوا يدخلون البيت ويصيحون: «مريم! أيتها القذرة! أين

مريم؟» بعدها كانوا يعتقلون زوجي دون أن نعلم إلى أين سيأخذونه. وبعد مرور أسبوعين كان يعود إلى البيت وعليه أعراض الربو. كان يدفع باب البيت ثم يدخل... كان في حالة يرثى لها... فكنت أنهضُ وأغسله وأعالجه. كانت تبدو على جسمه علامات الضرب المبرح... كانوا يعودون عشرة أو خمسة عشر يوماً بعد ذلك، فيطرقون الباب ويأخذونه معهم مجددا... تكرر الأمر بهذا الشكل إلى أن توفي بتاريخ 15 يناير 1959.

لقد أفرجوا عنه حينها لأنه كان على وشك الهلاك. لم يكن يستطع التحرك، فغيرتُ ملابسه، ثم قال لي: «اسمحي لي، لقد أتعبتك.» أجبته: «كلا يا أبا أولادي، سامحك الله، أنت لا تتعبني.» وفي اليوم التالي صباحا، كان ذلك في الخامس عشر من يناير، لفظ أنفاسه الأخيرة، رحمة الله عليه. كل الأصدقاء نصحوني بتسجيله كشهيد، فقلت لهم: «أيها الناس، صلّوا على النبي، هذا الرجل مات على سريره.»

عملنا بجد والثورة انطلقت معنا وانتهت معنا. كان الناس يقولون لي: «يا الحاجة، قدمي طلب منحة أو أيّ شيء.» لم أطلب شيئاً قط، ولا حتى إبرة، عملنا في سبيل الله. ولكن الآن أقول لك الحقيقة، إني نادمة، نادمة على بناتي... [تجهش المتحدثة بالبكاء].

كان يأتينا أحيانا أخ ينقل إلينا رسالة من عند بناتي تطلبن فيها بعض الأغراض فكنا نسلمها لذلك الرسول. وذات مرة طلبت منا العالية شراء قماش وخياطة فساتين ذات قياس لمن يتراوح عمرهن بين خمس سنوات وأربعة عشر إلى خمسة عشر سنة لصبايا لم يكن لهنّ ما يضعنه على أجسادهن العارية. اشترى أبوها قطعاً من قطن وقامت طلبية بتفصيله وخياطته، ثم وضعنا كل القطع داخل صناديق ونقلها أبوها إلى وجهتها كالمعتاد.

كان لدي «شنتوف»[حح] يتدلى إلى حد هنا [تشير إلى منطقة خصرها]. كان يتكون من ستين قطعة من حجم عشرة فرنك (قطع فرنسية ذهبية). فقمت ببيعه قطعة تلو الأخرى وكنت أشتري بثمنها للمجاهدين السجائر والكبريت والشاي والشوكولاته والحلوى. كنت أقول في قرارة نفسي: المساكين، كم هم محرومون! كانوا كلما أرادوا أن أشتري لهم شيئاً قدموا لي ثمنه، ولكن كنت أرفض وأقول لهم: «بحمد الله، لديَّ ما يكفي من المال.» قطعة بعد قطعة، بعتُ كل العقد وأقسم بالله العلي العظيم لم يتبق لي من قطع العقد ولا واحدة. كنت أقول في نفسي هذا عمل صالح في سبيل الله والوطن، وكل ما أدعو الله هو أن يحفظ أولادي. لم يُلقَ القبض على طلبية، الله حفظها. لكنهم أخذوا أصغرهن، فريدة، وأبقوها عندهم شهرين.

حح عقد طويل مشكل من عدد من القطع الذهبية.

الخير والشر موجودان في كل مكان. كان بعض الشباب من المجندين الفرنسيين يأتون لشراء شراب الليمون من إحدى المحلات مقابل مسكننا. كانوا صغار السن، عمرهم عشرون سنة. كانوا عاجزين حتى على تحمل حرارة شمس الجزائر. وذات مرة جاء أحدهم إلينا — وكان برتبة عريف — وكان يتخفى وسألني إن كنت أريد أن أبعث شيئاً ما إلى ابنتي فريدة، فقال لي: «تعلمين، كَتَبَتْ إليّ والدتي تقول: "حذاري يا سِمون، لا تفسد في الأرض!"» كنت أعطيه كتباً ومؤناً فيضعها في جيبه ويسلمها إليها.

كانت بناتي تكتبن الرسائل إليَّ، ولكني لم أرهُنَّ في الجبال قط. كنت أقوم بتمزيق وحرق كل الرسائل والصور التي تصلني منهن لأنّ الخوف كان يسكننا.

ثم بلغتني كل الأخبار سنة 1962. جاء إلى بيتي كل من فريدة وسي سعيد وسي حسن وسليمان. فتغذوا معنا ثم شربوا الشاي. ولكن لم تكن بناتي معهم [تجهش المتحدثة بالبكاء]. لم أكن أرغب في قطع شهيتهم، فلم أتفوه بشيء، ولما انتهوا من الأكل سألتهم: «وماذا عن بناتي؟ مريم؟» نظروا إلى بعضهم بعضا وقالوا: «استشهدت.»

فترة قصيرة بعدها سألتُ: «والعالية؟» ردّ عليَّ سي حسن بصوت مخنوق: «استشهدت.»

قلت: «ويوسف؟» وهو ابني بالتبني، هو الآخر التحق بالجهاد. «استشهد.»

لم أقل شيئاً، ولم أرغب في البكاء أمامهم. فدخلت المطبخ وأخذت أبكي: «يا أمي! يا أمي! إنّ قلبي يتمزق!» بعدها... ولله الحمد، منحني الله قوة الإيمان لمصابرة البلاء.

4. اغتصاب الجزائريات

ليس الاغتصاب بفعل جنسي بل هو فعل تأخذ فيه حرمة الضحية قهراً وظلماً. إنّ الاغتصاب فعل تعذيبي حيث يكون الجنس أداة التعذيب.

سيناقش الجزء 1.4 بعض الأمثلة عن اغتصاب الجزائريات وانتهاك حرماتهن إبان الاستعمار الفرنسي. وخصّص الجزء 2.4 لتحليل الأغراض الإجرامية–السياسية وراء هذه الفظائع، بينما يركز الجزء 3.4 على عواقب هذه الهتائك على النساء المستهدفات وعلى المجتمع كله.

1.4. وشهد شاهد عن الاغتصاب

ما زال توظيف الجيش الفرنسي للاغتصاب في بداية الغزو الاستعماري (1830-1872) أمراً مجهولاً، ولكن حمل المعتقلات قهراً على العبودية الجنسية في المواخير العسكرية وكذا وحشية الغُزاة غير المميِّزة للسن أو الجنس استرعى انتباهاً أكبر. في السنوات الأولى من الاحتلال كان أجْناد الاستعمار يتقدَّمون على طوال ساحل العاصمة، وحسب المؤرخ بنون «عندما حاول الجنرال كلوزال احتلال البليدة، قاومه سكان المدينة، فأمر عسكره بنهبها وإبادة سكانها. ولما وصل كلوزال إلى المدينة قال أنه وجدها "مغطّاة بجثث الكُهول والنساء والأطفال واليهود المنثورة. كانوا كلهم عزّل."»[14] وقال المؤرخ كريستيان في وصفه لمجزرة قبيلة الوافية التي أبيد فيها اثنا عشر ألف مواطن[15] يوم 6 أبريل 1832 م:

> في الفجر داهم فَيْلق [...] القبيلة وسكانها نائمون في خِيَمهم، فذُبح الوافية المساكين ولم يحاول أيّ أحد منهم الدفاع عن نفسه. وحكم على كل شيء فيه الروح بالإعدام، وقتلوا بدون تمييز السن أو الجنس. وعند رجوع فرساننا من تلك الغَزْوة الخِزْيَة، كانت رماحهم مُرزّزة في رؤوس [...]. وتم بيع كل الماشية لِقُنْصُل الدانمارك. أما باقي الغنيمة — بقايا دامية من مذبحة مفزعة — فقد عُرِض في سوق باب عزون. ما أرعب ذلك المشهد: دَمالِج النساء لا زالت تحفّ بمعاصم مقطوعة، وأشْناف لا زالت تتمسك بقطع اللحم. وقد تقاسم الذباحون حصيلة هذا البيع. وفي لقاء 8 أبريل أعلن الجنرال رضاه بالحماس والذكاء الذي أظهره جنوده، فبرّر بذلك تلك الفضيحة. وفي مساء ذلك اليوم أمرت الشرطة العرب بتنوير دكاكينهم.[16]

وقال شاهد فرنسي بشأن إبادة قبيلة أولاد رياح التي اختنق فيها مئات الضحايا بالتدخين يوم 19 يونيو 1845:

> لا يوجد قلم يستطيع وصف ذلك المشهد! يا له من منظر وفَيْلقٌ من جُنْد فرنسا منهمك في إشعال نار جهنمية في منتصف ليلة يضيئها القمر! يا له من محضر ونحن نسمع أنّات وآهات الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المكْظومة، وتفرقع وتساقط الحجارة المضْطَرِمة. [...] ولما حاولنا إخلاء مدخل المغاور في الصباح، وجدنا ثيراناً وحميراً وخرفاناً منتشرة هنا وهناك. وتحت الحيوانات وجدنا رجالاً ونساء وأطفالاً جثثهم متراكمة. وشاهدت رجلاً مات وهو على ركبتيه، ويداه قابضتان على قرني ثور. وكانت تقابله امرأة تحتضن طفلاً بين يديها. لقد اختنق الرجل وهو يحاول أن يحمي عائلته من غَيْظ الثور. وأحصينا سبعمائة وستين جثة.[17]

وفي نفس السنة شن الجند الفرنسيون التابعون لبوجو هجوماً مدمِّراً على الواحات الجنوبية وعلى بلاد القبائل. ووصف كفاغال المجازر في بلاد القبائل فقال:

صدر الأمر بشن حرب تخريبية ونُفِذ الأمر بصرامة. [...] كان سلوك جنودنا مُتَوَحِّش. [...] قتلت النساء والأطفال، وأُحْرِقت البيوت واقتُلِعت الأشجار من جذورها، ولم يمنع أيّ شيء. وارتكبت فضائع كثيرة. إنّ أغلبية نساء القبائل تضع دَمالِج في المعاصم والأوتاد، فشاهدنا جنوداً يقطعون أوصال النساء الأربعة لسرق تلك الدَمالِج. كانوا يبترون النسوة سواء كن ميتات أم على قيد الحياة.[18]



هجوم كتيبة فرنسية من الفوج الثاني على قرية إشريدّن في منطقة القبائل يوم 24 يونيو 1857



هجوم المستعمر على قسنطينة سنة 1837 م.





جزائريون وجزائريات بعد التدمير الفرنسي

وبالنسبة إلى عبودية النساء، فمن المعروف أنّ العقيد دو مونطَنياك السفاح[خخ] كان يبيعهن بالمزاد كالحيوانات. وفي إحدى وصاياه يقول هذا الرجل الذي اشتهر بسياسة قطع الرؤوس:

خخ لم يكن دو مونطَنياك سفاحاً فحسب، بل كان يتبجّح بذلك، ومثالاً على ما كان يقوله هو ما كتب في إحدى رسائله إلى زملائه: «لما تنتابني أفكار حزينة ألجأ إلى قطع الرؤوس – لا أعني رؤوس الخُرشوف بل رؤوس الرجال – لطرد تلك الأفكار.» (راجع المصدر رقم 19 في هذا المقال).

إنّ قطع رأس واحد يحدث رعباً أكبر من قتل خمسين رجل. طالما فهمتُ ذلك، وكل من خضع لي تعرض للعملية. [...] أُحذِّر كُل الجنود تحت قيادتي من الإتيان بعربي حي، وعقوبة من فعل ذلك هي ضربات متواترة بباطن السيف... هذا ما يجب فعله لمحاربة العرب: قتل كل الرجال حتى سن الخامسة عشر، وأخذ كل النساء والأطفال ثم شحن السفن بهن وبعثهن إلى جزر المركيز أو إلى مَوْضِع آخر. باختصار يجب إبادة كل من لا يتذلّل أمامنا كالكلب.[19]




أسيرات جزائريات أرغمهن الجيش الفرنسي على البغاء في بداية الاستعمار

أما بخصوص استهداف النساء جنسياً فتوجد بعض الشهادات عن اقتراف جيش فرنسا ذلك في آخر سنوات الاستعمار أيضاً. كانت الجزائريات آنذاك تتعرض للاغتصاب عند عمليات التفتيش والتمشيط، وفي السجون. كما تعرضن لانتهاك حرماتهن وبعضهن حُمِلن قهراً على العبودية الجنسية في المواخير العسكرية.

فحسب أليستير هورن، «كان للاغتصاب نِسَبٌ مرعبة وآثار دائمة على الجزائريات.»[20] وقال مولود فرعون في كتاباته الساخطة على اغتصاب النساء في القرى والمشاتى[دد] القبائلية – «المتمردة» حسب فرنسا – أنّ «هتك الأعراض ممارسة شائعة.»[21] والمغتصبون يثبّتون بأنفسهم هذه التصريحات. فيقول بونوا ري، الذي كان ممرضاً عسكرياً في شمال قسنطينة منذ 1959: «كانت عمليات الاغتصاب ممارسات عادية في كتيبتي. قبيل الشروع في العمليات العسكرية في القرى، كان الضابط يقول لنا: "اغتصبوا ولكن اِفعلوا ذلك بالكتمان."»[22] وتروي طبيبة النفس ماري أوديل غودار، التي درست الآثار النفسية للحرب في عينة من الجنود الفرنسيين، أنّ الجنود القدامى «قد حدثوني عن حالات الاغتصاب وكأنها ظاهرة نظامية في القرى، وغالباً ما كانت تلك اللقطات المتميّزة

[دد] جمع مشتى.

بغاية العنف مسبباً في اختلال توازنهم النفسي.»[23] كما يقول المؤرخ بنجمان ستورا: «لا بد من العمل على مستوى مخيلة قدامى الجزائر. لقد كتبوا ما يزيد عن ثلاث مائة رواية تنقل كلها لقطات اغتصاب رهيبة. هنالك فقط يمكننا قياس درجة الرعب التي سادت آنذاك.»[24]

إنّ الدراسات الإحصائية العالمية عن الاغتصاب في الحروب، مثل دراسة الصليب الأحمر، تشير إلى أنّ مستجيباً واحدا من تسعة مستجيبين في الإحصاء أعلن أنه يعرف امرأة اغتُصبت في الحرب.[25] هذه الحقيقة التجريبية والتصريحات أعلاه تتناقض مع الصمت الذي التُزِمَ به في الجزائر بشأن هذه المسألة المؤلِمة. ويرجع هذا الصمت وعدم إحصاء ودراسة هذه الجريمة الاستعمارية إلى عدة أسباب.

قد يفسَّر هذا الصمت إبان ثورة التحرير بباعث سياسي حيث كان حزب وجيش التحرير الوطني — حسب مولود فرعون — «يشرحون للنساء استناداً للقرآن أنّ جهادهن في الصبر على هتيكة العسكر وفي تحمّلها واللامُبالاة بها. [...] كما وعظوهن بكتمان تلك الأمور حتى لا يعتقد العدو أنه أصاب لُبّ الروح القبائلية الحي، وأرشدهن بالسلوك الوطني المحض الذي يضحي بكل شيء في سبيل تحرير أمته المستضعفة.»[26]

أما بعد الاستقلال، فالصمت يرجع إلى امتناع الضحايا عن البوح بعذابهن بسبب شعورهن بالحياء والعار رغم الظروف السياسية البحتة التي أدّت إلى اغتصابهن. وتلزم بعض النسوة الصمت اعتقاداً بأنه يستحيل مساعدتهن بعد الاغتصاب، كما يسكت البعض الآخر عن ذلك خوفاً من النَبْذ العائلي أو الاجتماعي. وبالطبع فإنّ كل هذه العوامل لا تبرؤُ الحكومات الجزائرية منذ الاستقلال من تجاهل هذه التركة الأليمة. من المعروف أنه لا يُرَدّ اعتبار المغتصبة ولا يُلوَّث سِجِل المغتصب التاريخي إلاّ بمقاضاة علنية، وبالتالي فليس لزوم الحكومات الصمت منذ الاستقلال إلاّ قراراً سياسياً يندرج في سياسة إفقاد الذاكرة التاريخية الجزائرية. وإنّ الصمت المصِمّ الذي لزمته الطغمة العسكرية وقادتها من أتباع فرنسا بشأن النقاش الفرنسي الحالي عن التعذيب إبان حرب التحرير (1954–1962) لهو دليل على هذه الإرادة السياسية لإفقاد الشعب الجزائري ذاكرته التاريخية.[ذ]

[ذ] في تعليقها عن صمت السلطات الجزائرية قالت لويزة إغيل أحريز: «لم أفهم سكوت مسؤولي الدولة والطبقة السياسية الجزائرية، وأتساءل كثيراً عن هذا الصمت. تبّاً لهم! لا نطالب إلاّ بالحقيقة. الجزائريون يعلمون أن التعذيب كان ممارسة منظمة ومؤسساتية وأن مسؤولي الدولة الفرنسية حاولوا إضفاء الشرعية عليها. كانت مراكز التعذيب منتشرة عبر كل القطر الجزائري ونادراً ما نجى الجزائريون من هذه الممارسة. واليوم يوجد عدد كبير من المعذبين القدامى على قيد الحياة. فحيَّرني حقاً هذا الصمت الذي يبدو وكأنه تواطؤ. هل يمكن نسيان عهدنا للشهداء بهذه السهولة؟

لقد كسر مولود فرعون هذا الصمت بسخطٍ في وصفه اغتصابات القبائليات في القرى الموالية للمجاهدين عند عمليات التفتيش والتمشيط. فقال: «لما يطرد العسكر القبائل من بيوتهم ويُحَوِّشونهم خارج القرية لتفتيش بيوتهم، فإنهم كانوا يعلمون أنهم سيفتشون فروج الفتيات والنساء.»[27] كما ذكر غاضباً في كتابة أخرى: «مكث العسكر ثلاث ليالٍ في قرية ثاوريرت وكأنهم في ماخور مجّان.»[28] وروى طبيب احتياطي في الجيش الفرنسي: «كنا في قرية لا زالت معمورة بالسكان المدنيين، فتم توقيف بنتين أبوهما مسلم مُطارَد ينتمي بلا شك إلى جبهة التحرير الوطني. كانت إحداهما في سن السادسة عشر والأخرى في الثامنة عشر. وسُلِمت البنتان إلى فرقة من الجنود المرتزقة، فتسلّوا بهما في الليل ثم قتلوهما في الصباح.»[29] وفي دراساتها الميدانية الاستقصائية عن آثار الحرب في بلاد القبائل، سجلّت المؤرخة كامي لاكوست-دوجاردان الشهادة التالية عن الاغتصاب: «عندما وصلت الشاحنة عرفت النسوة أنهن ستعتقلن في نفس البيت. فتفحصوهن واختاروا، فأخذوا امرأة وذهبوا بها إلى البيت المجاور. [...] كان لخمسة عشر نسوة من قرية إيسنّاجن نفس المصير. كان هذا معروفاً لدى الجميع لأنّ العسكر كانوا يأتون لاختيار النساء وخاصةً الفتيات. وتعرضت قرية إغيل بوسويل لنفس المصيبة.»[30]



قروية جزائرية تعرضت للاغتصاب

ونشرت جريدة المجاهد رقم 47 في 3 أُغُسطس 1959 تقريراً عن القمع الفرنسي في بعض المناطق القبائلية بين منتصف شهر أبريل ومنتصف شهر يوليو 1959، وفي ما يخص تعذيب واغتصاب النساء جاء في التقرير ما يلي:

> في قرية إحلاّل تعرضت خمس نسوة للتعذيب صوب أعين القرية ولزمن كلهن الفراش لمدة طويلة. [...] وفي قرية رودة اغتصبت امرأتان. [...] تعرض سكان قرى فلدم وإغرام وإغيل أمُقران للقتل والاغتصاب. [...] في قرية تينبار اغتصبت وعذبت امرأة. في قرية إمغداسن اغتصبت فتاتان بعدما تعرضتا للتعذيب. [...] في قرية آيت أَرَقْنان أعدمت امرأة بعدما عذبت. [...] في قرية أمقدول تعرضت النساء اللواتي أوقفن إلى التعذيب على رؤوس الأشهاد. في قرية إباهلى عذبت ربيعة فاوي (60 عاماً) وفاطمة آبل (36 عاماً) علانيةً. [...] في جَبَّة مِزْرانة اغتصبت ذهبية أكسيل من طرف ثلاثة حَرَكَة. [...] في قرية بوجحة

هل يكفي وضع الورود يوم 5 يوليو و1 نوفمبر؟ لا! فيجب مساعدتنا وتشجيعنا لكتابة تاريخنا، كما يجب الافتخار بتاريخنا لأنه من أجمل وأقسى تواريخ العالم. ما هو مصدر العار والصمت؟ أنا حيرانة.» راجع المصدر رقم 44.

رفضت ذهبية كوالدي (50 سنة) أوامر العسكر بالخروج من بيتها فعذّبت واغتصبت ثم أعدمت. [...] في قرية أذباغ تعرضت عدة نساء للعنف والاغتصاب، وعذبت فاطمة إبراهيمي (28 سنة) على رؤوس الأشهاد. [...] في قرية ثاوريرت عليونى عذّب الجند الفرسي أربعة فتيات ثم ألقوا بهن في النهر، كما رشّوا امرأة أخرى بالنفط وحرقوها. [...] في قرية ثاوريرت اغتصبت وردية عمو (17 سنة) وذهبية موافي (22 سنة) وسالمة تَسعديث (18 سنة) وامرأة عجوز. في قرية آيت إغمور عذّبت عدة نساء بالكهرباء. [...] في آيت أولمين وآيت علي أوقَفَ العدو عدة نساء بعد أن فعل بهن أفعال شنيعة. [...] في قرية آمقدول (مِرابو) جُرّدت عدة نساء من ثيابهن على رؤوس الأشهاد، وثلاثة منهن — جوهر قايس وتَسعديث قايس (17 عاما) وجوهر عمور (40 عاما) — تعرضن للاغتصاب أمام والدهن وأولادهن. [...] في قرية سولمة عذب العدو سبع نساء منهن خدوجة حاسد التي اغتصبت من طرف عدة جنود أمام عائلتها. في سوق الاثنين أوقفت واعتقلت ثلاث نسوة، ثم عريّن وعذّبن. أُفرِج عن اثنين منهن (شابحة سغبوليلي وذهبية بلعريف) بعد ثلاثة أيام، أما المرأة الثالثة فلم يطلق سراحها إلاّ بعد 12 يوماً. [...] في قرية ثبهلال هتك عِرْض طاوس ديلام (17 عاماً) وتَسعديث كلوفي (25 سنة) من طرف ثلاثة جنود. [...] في تِجي ليسة اغتصبت سعدية كلوش (15 عاماً) والسيدة آيت علي-محمد (متزوجة) وزينة بوكومة وتونس آيت سعجي (20 عاماً). [...] في قرية بوكران انتهكت حرمة ثلاث نساء: فروجة عبدوس (41 عام) من بوران، وسعدية أوماجي (27 عاماً) من آيت بوعاسى، وزوجة أكلي الحاج التي اغتصبت أمامه.[31]

لم تستثن هتائك فرنسا الحربية أيّ سن أو حالة من الجزائريات. فيقول بونوا ري مثلاً أنه خرج ذات يوم مع سريته لتمشيط قربة وحرقها، ولما رجعوا في المساء سمع أنّ «مسلمة في سن الخامسة عشر اغتصبت من طرف سبعة جنود وأخرى عمرها ثلاثة عشر هتك عِرْضها ثلاثة جنود.»[32] وقصت رفائل برانش قضية اقتحم فيها جنود فرنسيين بيت مسلم فرنسي واغتصبوا اثنتين، فذكرت تصريح نائب الجمهورية الذي قال: «[...] بعد ذلك دخل العسكر بيت السيدة التي كانت في الرابعة والستين. وحمل الدركي هذه السيدة وبنتاً عمرها ثماني سنوات قهراً على ملامسات فاحشة.»[33] وفي الشهادة التي حررها جان بيار فيتوري لضابط-صف اشتغل في عدة مراكز للتعذيب (DOP) أثناء الحرب، يقول ضابط الصف:

في ذلك اليوم جلست في الميس[رر] مع المساعد ميدو (Mideau) لنتناول الغذاء وحدنا، حينها جاء مساعد أوّل واستأذن بالجلوس معنا. ما كدنا نشرع في الأكل حتى سألنا هذا الشخص: «هل تعلمون لماذا جلست معكم؟» قلنا له: «لا، ولكن لست مُضْطرّاً للإفشاء بذلك.»

رر قاعة يتناول فيها الضباط طعامهم.

فضحك وضرب على فخذيه وكأنه على وشك سرد حكاية فكاهية، ثم قال: «استمتعت ببونيولة[زز] [عربية] عمرها ثماني سنوات. ما أنعم ذلك في هذا السن...» شحب المساعد ميدو وضننت أنه كان على وشك صفعه. كانت يداه ترتعدان، فوضع سكينه وشوكته في صحنه ثم قال له: «الفعل الذي ارتكبتَه فعل دنيء وأنت تتكلم عنه وكأنه مفخرة. أنت قذر ولن نأكل معك!»[34]

وورد ما يلي في الدفتر الذي دوّن فيه بونوا ري ملاحظاته وخبراته يوماً فيوماً عندما كان يحارب في صفوف الجيش الفرنسي ضد الجزائريين: «يوليو 1960 [...] في قرية ح. توجد امرأة مجنونة ومُشَوهَّة ولها يد مشلولة. كان الأطفال يرمونها بالحجارة وكان الجنود يشتمونها ويسيؤون إليها ويضاجعونها. حَمَلَت العام الماضي ووضعت مَليصاً، فهَدْهَدَت مولودها الميت طوال ثمانية أيام، وكانت تبكي بصمت.»[35] وفي نفس النشرة لجريدة المجاهد التي أشرنا إليها أعلاه، ورد الخبر التالي:«[...] في قرية فيليكس فور جرّ جنود العدو امرأة (علجية الحاج) عارية وهي حامل ثم عذَّبوها.»[36]

ففي مثل هذه الظروف من الوحشية المطلقة كانت الأمهات تلجأن إلى التمويه لستر أعراض بناتهن كما تشير إليه هذه الشهادة: «كانت أختي في سن الثالثة عشر فألبستها أمي فستاناً قديماً ووسخاً ووضعت قماشاً وسخاً على رأسها. وأبقت أمي أختي على حالها بتعمُّد. ولما جاء العسكر، أمسكوا أختي من ذقنها وأداروا رأسها لتفحصها جيداً، فتدخلت أمي وقالت: "اتركوها إنها مريضة! اتركوها إنها مريضة!" فلَكَمَ جندي أمي وكسر أحد أسنانها، ولكنهم لم يأخذوا أختي. وبعد ذلك زوَّجنا أختي فوراً بابن عم لنا.»[37] إضافةً إلى التمويه، كانت النساء تلجأن إلى الزواج الباكور لإنقاذ البنات والعائلة والجماعة من التدمير الفردي والجماعي الذي يتبع الاغتصاب.

ومن بين الهتائك الأخرى إبان الحرب لا شك أنّ الاغتصاب كسلاح للاستنطاق أوتَرُها. فتقول المحامية جيزال حليمي التي دافعت على عدة فدائيات جزائريات: «لا أتصوَّر أنّ هناك امرأة أوقفت واستنطقت ولم تغتصب. لم يسبق لي أن التقيت واحدة [...]. كل المتهمات اللواتي دافعت عنهن تمّ اغتصابهن.»[38] وحسب جميلة عمران لم تُعذّب كل النسوة اللاتي أوقفن ولكن هذه الممارسات كانت «شبه نظامية» بخصوص الفدائيات اللاتي جمعن 37 % من الأحكام بالسجن لأكثر من 3 سنوات رغم أنّ عددهن كان لا يتجاوز 2 % من النسوة اللاتي شاركن في الحرب.[39] هذه الأطروحة

زز كلمة مُحقِّرة يستعملها الفرنسيون للإشارة إلى الجزائريين. بالفرنسية تكتب: bougnoule.

تتوافق مع البيّنات الظرفيّة مثل شهادة هنري بويو الذي كان مجنّداً في مركز فرنسي للتعذيب معروف باسم فيلا سيزيني (Villa Sésini) في العاصمة سنة 1961. قال بويو أنه حضر ما يناهز مائة عملية اغتصاب في مدة عشرة أشهر،[40] وأضاف: «كان اغتصاب النساء يحدث بمعدل 9 من 10، بحسب السن والهيئة. وخلال المداهمات في العاصمة كنا نقتنص واحدة أو اثنتين لإشباع رغبة الجند. كنّ يمكُثْن يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام وأحياناً أكثر. [...] لم يكن هناك أيّ محظور. كان الاغتصاب وسيلة للتعذيب، كغيرها من الوسائل، أضيفت لرصيد النساء [لأُنوثتهن] بخلاف الرجال.»[41] لقد صدرت عدة شهادات صرّحت فيها الناجيات من التعذيب أنهن قد اغتصبن بأدوات شتى، وكذا بالخزْق بزجاجة كما جاء في شهادة بوباشا. فمثلاً تقول المجاهدة القديمة مليكة قريش أنه بعدما أوقفت يوم 7 أغسطس 1957 واعتقلت في مدرسة صحراوي (مركز للتعذيب قرب حي القصبة)، شرع ملازمان في استنطاقها:

> في أوّل الأمر كانوا ظريفين، ولكن لما رأوا أني التزمت الصمت أمروا ثلاثة جنود بمواصلة الاستنطاق. جرّدوني من ثيابي ورموني على الأرض. كانوا يفرّقون ساقيّ ويوصلون أسلاكاً حديدية كهربائية داخل الفرج وإلى حَلَمات الأثداء. وفي الجهة الأخرى كانت هناك علبة بيضاء صغيرة فيها مِفتاح كانوا يضغطون عليه. ولما طلبت شرب الماء جاء رجل بزي مدني وتبوّل في فمي، فغلقت فمي ولكن واصل فعله. كان الملازمان يعطيان الأوامر ويراقبان. كانا يذهبان ويجيئان ويأمران بإغلاق فمي لما كنت أصيح كثيراً. أحد الملازمين كان اسمه شميدت وقد سمعت منذ سبع أو ثماني سنوات أنه أصبح جنرالاً.[42]

وفي الشهادة الاعترافية التي حررها جان بيار فيتوري لضابط–صف فرنسي اختص في الاستنطاق والتعذيب أثناء الحرب، تذكر ضابط الصف ما يلي:

> إني أتذكرها من جديد. كانت ضابطة ارْتباط في حرب التحرير الوطني. كانت نحيفة جداً تعوم في فستان قديم قد أعطته إياها أوروبية كريمة. أوقفناها ورسالة بحوزتها، فلم يكن أي شك في جنايتها. في مكتب النقيب كانت جامدة وأنكرت كل شيء، وأكّدت أنّ رجلا مجهولاً بادرها في الشارع فلم تسمح لنفسها برفض الخدمة التي طلبها منها. قال النقيب: «من هو المرْسَل إليه؟» قالت: «نسيت. كنت على وشك رمي الرسالة لما أوقفني العسكر.» قال النقيب: «لا تكذبي، كنتِ تحت رقابتنا منذ أسابيع.» قالت: «ما فعلت شيئاً، أقسم لك.» قال النقيب بصوت خافت ومُتضايق: «إذا أصررت على السكوت فسنستنطقك بطرق أقل ظرافة.» قالت: «أنا بريئة.» قال النقيب: «قودوها!»
>
> أخذناها إلى القَبْو حيث لقينا رقيب جديد استحوذت عليه جِنْسيّته، فضحك هازئاً وقال لها: «هل أنت عَذْراء؟ لن تكوني بِكْرة بعد قليل!» أجهشت ببكاء صامت وكأنها طفل. إنها حرفة دنيئة. قال لها الرقيب: «عرّي نفسك!» قلتُ لها: «أفشى ما تعرفين وسنعيدك إلى

الزنزانة.» اقترحت لها ذلك بمغامرة رغم يقيني أنها سترفض إذ كان وجهها يعبِّر عن العناد والعزم رغم دموعها.

جرّدت ثيابها بِبُطْء وبقيت بسروال ورافعة النَّهْدَين، فصاح الرقيب: «قلنا لك عرّي نفسك!» بعدها اقتلع رافعتها بحركة عنيفة، فردّت فوراً على ذلك بوضع يديها على صدرها وبالتوسّل بعينيها. كانت هيئتها تعبِّر عن إهانة كبيرة. سوف يبقى ذلك في ذاكرتها إلى الأبد، أنا أدرك ذلك. فتبسم الرقيب ونزع سروالها بعنف، فتكورت الشابة فجأة وكأنها جنين وسترت أثداءها وفرجها.

قيّدت فوق مِفْرَش وفرقت ساقيها. كانت تبكي جهراً وكانت دموعها تضمحل في شعر أسود طويل. أدخل سلك في فرجها ووصل سلك آخر إلى أذنها، وبدأت الحصة. وبعد حين أقرت المرأة. رميتُ بطانية على جسدها وغادرتُ المكان. كنت أشعر بالتقزّز والإنهاك. وقبل خروجي من المكان سمعت الرقيب يقول لها: «لو نطقت في البداية لاجتنبت تعريتك يا بلهاء!»

لم أنم كثيراً في تلك الليلة. وفي اليوم التالي لم يجر الاجتماع اليومي بصفائه العادي. كنا نتجنب النظر إلى بعضنا البعض وكأننا آثمون. ولكن ما ذنبنا؟ مع ذلك لقد تَرَكت تلك التجربة جراحاً في نفسي. كان في إمكاني كتمان الأمر غير أني اخترت الشهادة بالحقيقة.

وانتهت اعترافات السجينة إلى توقيف شبكة نسائية للمنظمة السياسية–الإدارية التابعة لحزب جبهة التحرير الوطني: ممرضات ومساعفات اجتماعية وكاتبات وضابطات ارْتِباط، حوالي عشرين امرأة معظمهن شابات أوقفن كلهن بعد الظهر.[43]

جزائريات تحت قبضة العدو. الأسيرة على اليسار تُسمى السيدة هنيّة.





لقد صرّحت بعض الناجيات من التعذيب أنهن اغتصبن بأدوات شتى ولكن امتنعن كلهن عن الإدلاء بشهادتهن حول الاغتصاب حيث أنّ القضيب هو سلاح التعذيب، وهذا راجع للأسباب التي ذكرناها أعلاه. فمثلا لم تستطع المجاهدة لويزة إغيل أحريز أن تصرّح علناً بتعذيبها ومعاناتها إلاّ بعد أربعين سنة (راجع الشهادة في الجزء 2.2.3) وحينها لم تشر إلى فصل الاغتصاب إلاّ تَلْميحاً: «إني أخبركم – بصفتي امرأة من عائلة محافظة – أني لم أبح بكل التنكيل والعذاب الذي تعرضتُ إليه.»[44]

والنوع الآخر من الاغتصاب الذي يظهر واضحاً عند قراءة شهادات الحرب هو اغتصاب المعتقَلات. غالباً ما كانت السجون تبدو أكثر أمناً من مراكز التعذيب والاستنطاق لأنّ المجاهدين والمجاهدات كانوا يقرنون السجون بتوقُّف جحيم التعذيب، ولكن في الواقع فإنّ جحيم الاغتصاب يتواصل حتى في السجون. فمثلا شهادة جان فياز – رقيب سابق في الجيش الفرنسي – تذكر ما يلي:

> غالباً ما كان المساجين الذين تعذبهم كتيبتي من النساء. أما الرجال، فإما كانوا قد التحقوا بالجبال وإما كانوا قد اعتقلوا في محتشدات مُحاطة بأسلاك شائكة مكهربة بمدينة المِلية. يستحيل أن تتصوروا مدى إساءة المعاملة إزاء النساء. كان ثلاثة ضباط برتبة مساعد يقومون بـ"استنطاقهن" بانتظام في غرفهم الشخصية. وفي مارس 1961 رأيت أربعة منهن يحتظرن في سرداب حيث كن يتعرض يومياً للتعذيب طوال ثمانية أيام، وذلك بالخنق بالماء المالح والضرب بالفؤوس على الأثداء. وبعد وفاتهن ألقيت جثث ثلاثة منهن عاريات في منحدر على طريق مدينة القل.[45]

كما جاء في شهادة بونوا ري ما يلي: «كان العقيد ب. ضابطاً احتياطياً سنه يتجاوز الستين عاماً. كان معروفاً باستحواذ جنسيته عليه. في مركز ت.، كان العقيد يحضر كل الحصص التي يستنطق فيها ضابط الاستخبارات النساء. وفي المساء كان الضباط "يستمتعون" بالسجينات.»[46]

معروف أنّ الجيش الفرنسي حمل العديد من الجزائريات قهراً على العبودية الجنسية في مخامير عسكرية، ولكن لا تتوفر كتابات في هذا الموضوع المؤلم.

وأخيراً يجب استرعاء الانتباه إلى نوع آخر من الهتيكة كانت أقل من الاغتصاب هدماً غير أنها عادلته إهانةً. فعلى سبيل المثال، ذكر جان لوي جيرار، وهو جندي فرنسي سابق قضى خدمته العسكرية في مدينة وهران من سنة 1958 إلى سنة 1960، أن معسكره «كان فيه مُذكّرة دَوْرية تأمر بالتأكّد من حقيقة جِنْس النساء، كما كانت تأمر باللجوء إلى الطبيب في حالة الشك في حقيقة ذلك. كانت مُذكّرة دَوْرية مضحكة فنسختُها.»[47]

وبشأن هذا التحقيق في جِنْس النساء، فقد روى لوي دفرد — وهو عضو سابق في الفرقة الثانية عشر من الفوج الرابع للمُشاة المؤلّلة الذي حارب في بلاد القبائل منذ سنة 1959 — أنه «ذات مساء كان في الحراسة فسمع نُواحاً، فقاده الأنين إلى مَحْرِز وجد فيه مساعد أول يستنطق امرأة عن زوجها المقاوم. فلتبيين جناية المرأة لجأ المساعد إلى تجريدها من ثيابها ثم أشار إلى نتف عانتها وهو يضربها بعنف.»[48] لقد أكدت المؤرخة كلير موس–كوبو أن «إصدار الأوامر بلمس فرج النساء للتحقق من هويتهن، كما حدث ذلك مراراً، كان كفيلاً بفتح الأبواب للاغتصاب.»[49] كما ذكرت برانش قصة ضابط في شؤون الأهالي قال: «ذات مرة وصلت إلى قرية صغيرة فوجدت فتاة عارية تماماً وسط جنود يضحّون عليها ويمسكون أثْداءها.»[50] وفي نفس النشرة لجريدة المجاهد التي أشرنا إليها أعلاه، ورد الخبر التالي:«في قرية برماطو اعتقلت دورية فرنسية امرأة ثم أطلق سراحها وهي عارية بعد أن عذّبت. [...] في قرية بن باطة جرّدت فتاة من ثيابها أمام كل الناس ثم شُدّت إلى شجرة لمدة يوم كامل. [...] في قرية شبّل أوقفت امرأتان كانتا قد ذهبتا لاشتراء المؤونة، فنُهبت مشترياتهما ثم جُرّدتا من ثيابهما وسيِّرتا عبر القرية وبعد ذلك أُفرج عنهما.»[51] وكمثال أخير لهذا النوع من الهتيكة، فإنّ الرسالة الاحتجاجية الجماعية، التي كتبتها نسوة قرية كتوس ببلاد القبائل،[سس] دليل على الشيطنة التي لجأ إليها الاستعمار الفرنسي لإهانة الجزائريين والجزائريات:

> انقضّ العسكر بالمئات على أكواخنا، كنا نسمع حركات الجري والبكاء والصراخ في كل مكان. ثم أرغمونا على الاتجاه صوب ساحة صغيرة بالقرية. لم يوفروا حتى على امرأة مصابة بمرض السرطان — طريحة الفراش منذ أكثر من خمسة أشهر — عناء التوجه إلى الساحة وهي تزحف من شدة المرض. و هناك قام العسكر بتجميعنا، الرجال من جانب والنساء من الجانب الآخر. ثم جاؤوا برجل عجوز، لوناس أوكرين، وعمره 75 سنة، فأوقفوه بين الطرفين وعروه من كل ملابسه أمامنا، وأكرهوه على الرقص عريانا تحت تهديد سلاحهم، ثم أمرونا بالتصفيق على نفس الإيقاع والهتاف: "تحيا فرنسا!" وبدافع الحياء، لجأت النسوة إلى تغطية وجوههن بخمارهن لكن العسكر قاموا بنزعه عنوة. وبعد ذلك جاؤوا بالمدعو أحمد بن رزقي مترف، 28 عاماً، فأوسعوه ضربا وأرغموه على الصراخ: "يسقط مصالي وتحيا فرنسا!" وانهالوا

[سس] في نهاية شهر نوفمبر 1954 م قام رجال الدرك ببلدية المختلطة التي تشمل قرية كطوس بالقبائل، باستدعاء الفلاحَين، رابح بن لوناس وأحمد بن محمد، وطلبوا منهما تسليم أسلحتهما. ولكونهما لم يكن بحوزتهما أسلحة، فلم يستجيبا للاستدعاء وبقيا في القرية. وفي التاسع من شهر ديسمبر، جاءت الشرطة لإلقاء القبض عليهما. فهرب الرجلان. وبعدها — في العشرين من نفس الشهر — قَتلَت المليشية التابعة للقائد (عميل فرنسا) والد رابح بن لونس. وبعد ذلك بيومين دخل الجيش ليحتل قرية كطوس. قبل الأحداث الموصوفة في الرسالة الجماعية، كان يقطن هذه القرية ثلاثمائة شخص، ولكن لم يبق منهم بعد ذلك سوى ثلاثون.

كذلك ضرباً على علي بن محمد سماعيلي ، 65 عاماً، وهو عاري الصدر، ثم انتقلوا إلى محمد السعيد أوكرين فأوسعوه ضربا... وبعد ذلك غادروا المكان برفقة أربعة شبان من القرية.[52]

2.4. مقاصد الاغتصاب الحربي الفرنسي

لا نعني بالمقاصد تلك البواعث لدى الجنود المغتصِبين بصفتهم أفراداً. ليس القصد هنا بالدافع الجنائي الفردي بل يشير القصد إلى الإرادة والاستراتيجية على مستويات مختلفة من سلسلة القيادة العسكرية. لعل هناك أفراداً مغتصبين لا يقصدون بوضوح خطط الاغتصاب الاحترابيّة التي ينفذونها، ولكن ذلك لا يبطل إمكانية تراكب عدة دوافع (فردية وجماعية–احترابيّة) وراء أي فعل اغتصابي.

لم يكن اغتصاب الجزائريات عبارة عن أفعال منعزلة أو تجاوزات متشتِّتة أو أحداث عشوائيّة. إنّ النطاق الواسع لهذه الجريمة وترددها واستمرارها وكذا توزيعها الجغرافي خاصةً في المناطق الموالية لجبهة وجيش التحرير الوطني كلها بيِّنات تُثبِت وجود إرادة جماعية منظمة، وهذه الإرادة التحتية هي ما نشير إليه بقصد أو استراتيجية الاغتصاب الحربي.

لقد أنكرت برانش في رسالتها عن ممارسة الجيش الفرنسي للتعذيب من 1954 إلى 1962 وجود استراتيجية وراء الاغتصابات كما نَفَت أن يكون الاغتصاب قد استُعمل كسلاح حربي مسبق القصد والعمد.[53] وقد استدلت مزعمها هذا بثلاث حجج: أ. كان الاغتصاب محظوراً رسمياً في الجيش الفرنسي؛ ب. هناك مُذكِّرات دَوْرية كتبها الجنرال صالان والجنرال جيل تُحذِّر الجند من الاغتصاب؛ ج. هناك وثائق تثبت إصدار عقوبات تأديبية ضد مغتصبين.[54]

ليست هذه الحجج بمقنعة. فالحجة الأولى (أ.) باطلة بسبب ممارسة التعذيب وإعدام المساجين بلا محاكمة على نطاق واسع بأمر من أعلى السلطات العسكرية الفرنسية رغم أنّ القانون العسكري الفرنسي يحظر التعذيب والإعدام خارج نطاق القانون.[شش] وبما أن السلطات العسكرية الفرنسية اخترقت قانونها الذي يحرّم التعذيب والإعدام بلا محاكمة، فما الذي يمنعها من اختراق قانونها بشأن الاغتصاب؟

أما بخصوص حجة المذكِّرات الدَوْرية التي تحذِّر من الاغتصاب (الحجة ب.)، فلا قيمة لها بمقتضى وجود مُذكِّرات دَوْرية تَصِف تجريد النساء من ثيابهن والتحقيق في هويتهن بتفتيش جِنسهن. ليس لهذه التعليمات الرسمية من سابق في العالم، وكما قالت موس–

شش هل سمعت برانش بمقولة العقيد بيجار المشهورة: «لا تعذِّبوا ولكن عذِّبوا» ؟

كوبو فإنّ «إصدار الأوامر بلمس فروج النساء للتحقق من هويتهن، كما حدث ذلك مراراً، كان كفيلاً بفتح الأبواب للاغتصاب.»[55] ومن المعروف أنه صدرت مُذكِّرات دَوْرية تحذّر الجند من التعذيب (من جنرال دو لبولارديار مثلا) ولكن هذا لم يمنع ممارسة التعذيب على نطاق واسع. إضافة إلى ذلك، فقد ثبت إصدار أوامر شفاهية تحُثُ الجند على الاغتصاب كما ورد في الشهادة أعلاه («اغتصبوا ولكن اِفعلوا ذلك بالكتمان!»[56])، وإلى هذا كله فقد تواترت الرويات عن مكافأة الضباط جنودهم بالاغتصاب.

أما حجة برانش الثالثة (ج.) فليست مقنعة إطلاقاً لأنه نادراً ما كانت تُقاضى حالات الاغتصاب، والعقوبات التأديبية التي كانت تُطلب كانت رمزية فقط. فكل هذا لا يعكس إرادة سياسية لكبح هذه الممارسة الشائعة.

وإذا كان مَزْعَم برانش صحيح، أي إذا لم تَقصد السلطات الفرنسية توظيف الاغتصاب حربياً، فلماذا فشلت هذه المنظمة والآلة الحربية القوية في اكتشاف هذه الممارسة الشائعة؟ وإن لم يكن الأمر خللاً في الاكتشاف، لماذا رفضت أعلى السلطات العسكرية أن تنظر إلى (وتسمع عن) هذه الممارسة الشنيعة؟

ومجمل القول أنّ التحريض على الاغتصاب و/أو إخفاءه كان من فعل ضباط على مستويات مختلفة من سلسلة القيادة العسكرية الفرنسية. وليس احتجاج بعض الضباط في مستويات أفقية أو عمودية من سلسلة القيادة العسكرية الفرنسية على هذه الممارسة بدليل على أنّ الاغتصاب لم يكن سلاحاً حربياً مسبق القصد والعمد. فلا يستتبع هذا الاحتجاج إلاّ وجود بعض المعارضة لهذه الممارسة، تماماً كما كان شأن التعذيب. ومن المعروف أنّ التعذيب مُورِس بقصدِ وحساب أعلى سلطات الدولة والجيش. إنّ نطاق الاغتصاب الواسع وتردده واستمراره وتوزيعه الجغرافي-السياسي كلها أمور تدل على استحالة جهل الضباط في كل مستويات سلسلة القيادة العسكرية الفرنسية عن اقتراف هذه الجريمة، كما تشير إلى حتمية إدراكهم «منفعية الاغتصاب السياسية» في الحرب. وأخيراً ليس هذا الاستدلال بعجيب لمن تذكّر أنّ هذه الظاهرة ليست استثنائية بل تندرج في تاريخ أَلْفيّ رأينا آخر نماذجه في سلوك الجيش الياباني إزاء الصينيات، وفي سلوك الجيش الإندونيسي في شرق تيمور، وفي اغتصابات الجيش الهندي في الكشمير، وفي استراتيجية الجيش الصربي في البوسنة والهرسك، وفي إبادة التوتسيين الجماعية من طرف الهوتو في الرواندا.

إنّ استنتاج وفهم المقاصد السياسية التحتية للاغتصاب تقتضي الوعي بأنّ هذه الممارسة لا تستهدف النساء فقط، بل إنها توجه رسائل إلى مجموعة النسوة اللواتي تتماثلن مع المغتصَبات، وإلى المجتمع والأمة الجزائرية ككل، كما أنها تخدم أهداف داخلية في الجيش الفرنسي.

وبالنسبة إلى النساء اللواتي اغتُصبن (فدائيات ومجاهدات ومسبِّلات ومرشدات، وأقارب المجاهدين، والنسوة في القرى المساندة للجهاد، الخ)، فإن القصد من وراء استهدافهن هو معاقبة اختيارهن السياسي، وكذا كسر مقاومتهن وتطويعهن بإهانتهن وتركيعهن. إن فعل المغتصِب الفرنسي يقصد أن يغرس في نفس وذِهن ضحيته الاعتقاد بأنه يتحكّم في حياتها وكرامتها ومحيطها (لأنه جردها من التحكم في ما يمس ويُأثر على جسدها)، وأن نجاتها تقتضي طاعته والخضوع والإذعان له. ويتجلى قصد العقاب والتركيع بوضوح من هذه الشهادة في كتاب برانش: «كان التعذيب يبدأ بالشتائم والألفاظ القذرة: "يا عاهرة، يا بَغِيّ، ألا تتهيجين جنسياً من التحاقكِ بمجاهديك في الجبال؟" وبعد ذلك كان التعذيب يتواصل بالكهرباء ثم بالخنق في المِغْطَس. ولما تصبح المرأة مبلَّلة ومذعورة ومنهارة، كانت تغتصب بأداة — بزجاجة مثلاً — بينما يتواصل وابل الشتم. وبعد هذه المقدمة من التهيّج وإطلاق ما هو مكبوت، كان الجلادون يشرعون في الاغتصاب الجماعي بالتداول.»[57] ومثال آخر يثبت وجود قصد العقاب هو ما دوّنه بونوا ري في مذكراته حيث يقول:

> في شهر نوفمبر 1960، رجع العقيد ب.، الذي يقود الفرقة العسكرية، من إجازته. [...] استدعى كل الجنود الجدد وسألهم عن آرائهم فيما يخص الجزائر. لما جاء دوري تكلمتُ عن ردود الأفعال في فرنسا والجزائر، وحدثته عن الاغتصابات. فقاطعني وقال: «الحَرْكة هم الذين يفعلون ذلك.» قلت له: «لا، الأوروبيون هم الذين يفعلون ذلك في غالب الأحيان.» فقال لي: «هذا عجيب! على كل حال ستكتشف أن المغتصبات تستحققن ما تتعرضن له. إنهن متواطئات، تساعدن الفلاقة، وتطبخن لهم وتخفينهم. في هذا البلد السبيل الوحيد هو إتلاف كل شيء.»[58]

إنّ هذه الاغتصابات أثارت ونشرت الرعب والقلق وسط الجزائريات اللواتي كنّ يتماثلن مباشرةً مع الضحايا ومع آراءهن السياسية (أي دعم استقلال الجزائر). إنّ هذه الشريحة من المجتمع كانت تستقرئ الرسالة التالية من عمليات الاغتصاب: «التخلي عن دعم ثورة التحرير هو السبيل لتفادي العقاب الجنسي.» فيترتب على ذلك أنه — بالنسبة لهذه المجموعة المستهدَفة — القصد من وراء تلك الاغتصابات هو التطويع. فكما قال القِسّ مولار بشأن هتك الأعراض في ولاية بجاية: «أصبح الاغتصاب وسيلة للقمع.»[59]

كانت كل النسوة اللاتي اغتُصبن تنتمين إلى عائلة، وقرية أو حارة، ومنطقة، وإلى الشعب الجزائري وحركته الاستقلالية. فبالنسبة لكل هذه المجموعات التي تتماثل معها، كان القصد وراء الاغتصابات هو إظهار سلطة فرنسا وكذا إثبات عجز الأمة الجزائرية وحركتها الاستقلالية على حماية نسائها. إنّ اغتصابات فرنسا الحربية كانت ترمي إلى هتك وتدنيس حرمة الجزائرية، التي تمثّل إحدى القيم الأساسية في المجتمع، ومن ثم إلى إهانة الأمة كلها وتثبيط هِمَّتها. كما سعت تلك الهتائك إلى تفكيك تماسك الشعب اجتماعياً وثقافياً وسياسياً، وذلك بسبب عزل المستهدفات عن عائلاتهن بتنجيسهن ومن جراء تمزيق الاغتصاب للعائلات وروابطها، وكذا فلقه الجماعة التي تنتمي إليها الضحايا بتلويث النسل ونقل رمز هيمنة المقترفين إلى الأجيال القادمة. لقد فهمت جبهة التحرير الوطني بسرعة هذه المقاصد الحربية وأرهفت الحِس لغرض المحتل من إظهار عجزها عن حماية الجزائريات في صِبْغة هزيمة تامة. لقد تفطّنت جبهة التحرير الوطني لإدماج فرنسا الإهانة في إرهابها كما أدركت أنّ الاستعمار يعتبر شرف وكرامة المرأة الجزائرية أرهف اِنْجِراحِيّات المسلم الجزائري. فكما ورد في قول مولود فرعون أعلاه، إنّ رد فعل جبهة التحرير الوطني كان سياسة الصمت والتجاهل للامتناع عن الاعتراف بسلطة فرنسا التخريبية، ورفضها، هذا إلى جانب تكثيف القتال.

بالطبع، كان لممارسة الاغتصاب مقاصد أخرى بالنسبة إلى الجيش الفرنسي ذاته. كان الضباط يهدون الجزائريات لجنودهم وكأنها مُكافآت أو عِلاوات. فمثلا جاء في شهادة ري: «قبيل الشروع في العمليات العسكرية في القرى كان الضابط يقول لنا: "اغتصبوا ولكن اِفعلوا ذلك بالكتمان." [...] كان ذلك جزءاً من "امتيازاتنا" وكنا نعتبره حقاً مكتسباً إذا صحّ القول. لم يكن ينتابنا أي تساؤل معنوي حول هذا الموضوع. كانت الذهنية السائدة آنذاك هي أن الأمر يتعلق أولاً بالنساء، ثم بنساء عربيات، فتصوروا إذن...»[60] أما الجندي بويو الذي ذكرناه أعلاه فيتذكر نوعين من الاغتصاب: «صنف للاستنطاق، وصنف آخر من الاغتصابات للمتعة والترويح عن النفس كانت أكثرها تردداً وتتم في غرف خاصة وملائمة للغرض.»[61] ووُظِّف الاغتصاب أيضاً لربط الجنود إلى بعضهم البعض، ولنسج نوع من التضامن بين المغتصِبين. فبعد عقود من تلك الجرائم ما زال بعض المقترفين يتذكرون الاغتصاب كعملية ترابط، أو «تأثير جماعي» كما يسميه بويو في شهادته: «كنا ندرك أننا لم نحسن عملاً، ولكننا لم نكن واعين كل الوعي بتحطيمنا تلك النسوة مدى الحياة. لا بد أن تضعوا أنفسكم في سياق تلك الحقبة: كنا في العشرينات من أعمارنا، وكان الجزائريون يُعتبرون أوباشاً، وكانت الجزائريات تعتبرن

أسفل من ذلك وأسوأ من الكلاب... إضافة إلى المحيط العنصري آنذاك، كان يسود التوحُّد والسأمُ المجنِّن والسكرات والتأثير الجماعي.»[62]

3.4. عواقب الاغتصاب الحربي الفرنسي

لا شك أنّ عواقب الاغتصاب الإنسانية والنفسية والاجتماعية كانت هدّامة وفقاً لغرض فرنسا في إبْهاظ تَكْلِفة الاستقلال. ولم تزُل هذه العواقب مع نهاية الاعتداء والاستعمار، بل دامت طوال حياة الضحايا.

ليست الجزائريات اللاتي اغتُصبن بأغراض أو مرام حربية —كما كان يصوّره ويتجرّده المغتصبون العسكريون — بل هن إنس خلقهن الله تعالى لحماً وروحاً، ومنحهن الكمال والجمال والكرامة، وكل واحدة منهن فرد فذّ بحكم هذا الخلق والتكريم.

من المعروف أنّ آثار الاعتداء الجنسي الجسدية تتضَمَّن الأمراض المنقولة جنسياً وعدة أضرار في الأعضاء التناسلية، وكذا جُروحاً داخلية تنتهي أحياناً إلى العُقم وخِلال جنسية مختلفة.

وينتهي الاغتصاب أيضا إلى الحَمْل والوضْع كلما استحال الإجهاض، وتستتبع ذلك عدة مشاكل نفسية مرتبطة بحمل وتربية نَسْل العدو. فمثلا روت المجاهدة ميمي بن محمد أنها لما أثارت هي وفاهي حرموش قضيّة الحَمْل (من جراء الاغتصاب) أمام قادة الجهاد في الولاية الثالثة إبان حرب التحرير، «أخذتهم الدهشة مما سمعوا ولم يصدّقوا ذلك في البداية. وبعدها استوعبوا الأمر. قلنا: "ما هي الإجراءات الواجب اتّخاذها بشأن هذه الأحمال؟" فقال المقدَّم سي الأخضر: "هيَّا نقتل الرُّضع." ربما قال ذلك لأنه كان شاباً. قلنا له: "لا! هذا مستحيل، لا يمكن قتل الأبرياء. لا ذنب للأطفال ولا للنساء لأنهن أكرهن على الحمل قهراً. لا يجوز قتل رضيع هكذا، هذا سيكون جريمة." فبالفعل لم يقتلوهم وصانوا كل الأطفال. لم يتقبلهم البُعول ولكن صانوهم في الأخير. وقد ظهرت عدة مشاكل ولكن الكلّ تفهّم الأمر...»[63] هذه الشهادة تتطابق نوعاً ما مع الشهادة التي أوردتها كامي لاكوست-دوجادان في استقصائها عن الاغتصاب في قبيلة إفليسن في بلاد القبائل: «كان المجاهدون يأمرون بكتمان حالات الاغتصاب من طرف العسكر الفرنسي. كانوا يعتبرونها عَوارِض. كانوا يعطون النساء شيئاً للإجْهاض. وكانوا دائماً يقولون: "إذا اغتُصبت امرأة أعلمونا حتى نعطي شيئاً للإسقاط إذا كان ذلك في وسعنا." هناك امرأة يُقال أنّ ابنها نسل عسكري غير أنّ زوجها لم يطلّقها.»[64] وما زالت المشاكل

النفسية والاجتماعية الناجمة عن تلك الأحمال القسرية ونسْل العدو حساسة ومؤلمة رغم مرور أربعة عقود (راجع مثلاً الملحق حول قضية محمد قرن).

لقد تسببت الهتائك في جروح نفسية خطيرة لدى الناجيات من ذلك العذاب. فأُصبن بأنواع مختلفة من الأمراض الجسدينفسية ومن ضروب الذُهان، ومنها الشعور بالاستلاب والحداد، وفقدان التلقائية والشعور بالأمن، وكذا الانهيار العصبي والقلق.

فمثلا أوردت كامي لاكوست–دوجاردان شهادة نموذجية عن ظهور ذهان بعد–رضيّ (موصوف بـ«الجنون» أدناه) لدى المغتصَبات:

> لقد مرضت بعض النسوة بعد ما اعتقلهم العسكر ليلة كاملة. أصيبت إحداهن بمرض مزمن منذ تلك الليلة. أُدخِلَت مستشفى تيزي وزو ولكن بقيت سقيمة. [...] أسقمت الحرب النساء، كلهن أصبحن مضطربات مخبولات، عانت كلهن من ويلات الحرب. تراهن تغنين كل الوقت هكذا [انتحاب المتحدثة]. جُنَّت الكثيرات منهن. فعندما يصيبهن الداء تذهبن إلى المستشفى لمدة ثم ترجعن. رغم ذلك فإنهن تصبن بشيء من الجنون من حين لآخر.[65]

ليس هذا «الجنون» إلاّ امتناع عن الاعتراف بواقع جهنمي، أي هو رفض عقلي وتخدير نفسي لمواجهة ألم لا يطاق. وفي شهادتها عن مشاركتهن في الجهاد تذكرنا المجاهدة ميمي بن محمد بحالة المغتصَبات بكآبة فتقول:

> كانت نساء القرية مُتَفَانيات في سبيل التحرير. كنّ أحياناً تستيقظن على الساعة الثالثة صباحاً لتحضير الخبز. كن تذهبن ويأتين بالماء والحطب، وذلك بكل سرور وليس إكراهاً. لقد عانين كثيراً وتعوَّدن على عمليات التمشيط وتطبَّعن على الضرب، وتعوَّدن على كل شيء... في المساء كن يحين من جديد، كن يلتقين ويُحاولن أن ينسين. كن ينسين في المساء ما عانين منه في النهار... كن يُشغِّلن المذياع ويستمعن إلى الموسيقى... كان ذلك باستثناء النساء اللاتي اغتُصبن، إذ كان هؤلاء منكمشات على أنفسهن. كانت صامتات ولكن كنا نشعر بحزنهن رغم أنهن بذلن ما في وسعهن لإرضائنا.[66]

إضافة إلى هذه الآثار النفسية، فغالباً ما تعاني الضحايا من السُهاد والكوابيس الدورية سنوات عدة بعد التعرض للاغتصاب. هذه الكوابيس تبعث مشاهد الاغتصاب من جديد مما يجعل الضحية تعيش المصيبة مجدداً وذلك يُعيدها للمرة الألف إلى أتون حالات الذعر والهول. في عَقْر هذه الكوابيس ترى وتشعر الضحية أنها تحاول الهروب من الاغتصاب دون جدوى.

كما يرافق كل هذه العقابيل شعور قوي بالعار (العار باللطْخة) يجتاح ويُسمِّم روح وحياة هؤلاء الأخوات حتى خاتمتهن. وينسب علماء النفس ذلك الشعور بالعار إلى استيعاب الضحايا التدمير الذي استهدفهن، ومن ثم إلى نمو سلوك مدمر للذات.[صص] وتروي المحامية جيزال حليمي أنّ المتهمات اللاتي دافعت عنهن قد اغتصبن اغتصاباً وحشياً غير أنهن كنّ يشعرن بعار شديد إلى درجة أنهن توّسلنَ إليها لكتمان الأمر: «الاعتراف بأنهن اغتُصبن بزجاجة كان كافٍ لإفنائهنَّ، أما الإقرار أنّ عِرْضهن هُتِك بعد ذلك من طرف عدة مغتصبين، فكان معناه أنهن ليسوا صالحات إلاّ لصندوق الزُبالة.»[67] ورغم مرور عدة عقود، ما زال الشعور بالعار يُصْمِت الضحايا، كما يظهره مقال فلورانس بوجي الاستقصائي:

> منذ أن تكلمت وكشفت لويزة إغيل أحريز علانيةً، في فرنسا ثم في الجزائر، عن الاغتصابات التي تعرضت لها أثناء اعتقالها من طرف الجيش الفرنسي سنة 1957، انطلقت ألسِنة المعذِّبين والضحايا معاً. فعلا، إن بعض المجاهدات القدامى تذكر سراً تعرّضهن للتعذيب كما تلمِّحن إلى اغتصابهن بتردد وتحفّظ. ولكن الصدمة كانت مؤلمة إلى درجة أنهن ترفضن حتى اليوم الشهادة جهاراً. وتقول هؤلاء النسوة أنهن لم يكشفن قلوبهنَّ حتى لبعضهن البعض بعد عودتهن إلى الحياة المدنية. وتقر بذلك السيدة ك. فتقول: «على الرغم من كل شيء، ظللنا على استعمال رمز بيننا إذا صحّ القول. حالما تُنطق كلمة تعذيب ننظر إلى بعضنا البعض، ونشدّ ذِراع بعضنا البعض مجهشين بالدموع أحياناً، ثم تقول إحدى الأخوات جهراً: "لا يعلم ما فعل بنا عسكر فرنسا إلاّ الله"، ومعنى ذلك "لا تسألونا أيّ سؤال."» وفي الأشهر الأخيرة تجرّأت للمرة الأولى هذه المجاهدة السابقة على سؤال سبعة عشر من أخواتها في المقاومة هل هتك عِرْضهن: «سألتُ الأخوات اللاتي كان يبدو لي أنهن تستعملن نفس الرمز الذي تحدثت عنه الساعة. وثبت في النهاية أن اكتناهي كان صحيحاً. كلهن اغتُصبن. وكلهن أقررن بذلك ثم أضفن فوراً: "أرجوكِ لا تبوحي بذلك."»[68]

بالطبع، إنّ هذا الشعور بالعار يتفاقم بقدر ما يعمل المجتمع على اشتداده بدلا من تخفيفه. ربما كانت سياسة الصمت التي انتهجتها جبهة التحرير الوطني إبان الحرب مبرّرة لحرمان العدو من تفوق نفسي–سياسي، ولكن بعد الاستقلال سقط هذا التبرير. كان الأجدر أن يُعترف علانيةً بالمشكل، وأن تُقدّم مساعدات طبية ونفسية واجتماعية للنسوة اللاتي جُرحن في أرواحهن في سبيل الاستقلال، وأن تُساهم الدولة في عملية الشفاء بمتابعة

صص أحياناً ينتهي هذا الشعور بالعار إلى نزوع قوي إلى تدمير الذات كالانتحار. فمثلا ورد في شهادة الجزائرية المجهولة عن مركز الفرز بن عكنون (راجع الجزء 1.1.3) ما يلي: « أخبرتنا بعض المعتقلات من مدرسة صحراوي عن انتحار شابة عمرها 19 عاما ألقت بنفسها من نافذة المدرسة.»

بعض مغتصِبيها قضائياً وبتوعية المجتمع الجزائري ليضُّم ويُساند ويُكرّم هذه الشجاعات التي كابدن أفظع ضُروب التعذيب.

إن معظم النساء اللاتي انتهكت حرماتهن عاشت بعد الاستقلال بالخوف من أن تنبذ أو تعزل من المجتمع، في حين أنّ العديد منهن نبذن فعلاً من طرف عائلاتهن وجماعتهن إذ اعتُبِرن ملوَّثات وملوِّثات. ومثال ذلك ما قالته المجاهدة القديمة ك. للصحافية بوجي: «في بلادكم، في فرنسا، عندما تُغتصب امرأة تعتبر أنها ضحية. أما هنا فالأمر عكس ذلك تماماً: نُعتبر نحن الجانيات، وحتى أقاربنا يظنون أننا جانيات. فنعاتب عتاباً بالإشارة إلى عجزنا عن مقاومة مغتصبينا، ودليل اللائمين على كل هذا هو أننا ما زلنا على قيد الحياة. في عُرْف والدينا كان أحرى بنا أن نموت لأن الاغتصاب أسْوأ خِزْي للعائلة.»[69] وتتذكّر السيدة ك. ما قالت لها أمها لما استرجعتها وهي مجروحة من الرأس إلى القدمين من جراء تعذيب المظلّيّين: «هل مَسّوكِ يا ابنتي؟»، فردت عليها الفتاة «نعم» وهي تأمل أن تخفّف أمها ألمها وتعزيها، ولكن أمها انهارت وصاحت: «لا تبوحي بهذا لأيّ شخص أبداً!»[70] وتروي اليوم السيدة ك. بخيبة: «ففعلتُ ما فعلته كل الأخريات: التظاهر بالبشاشة والتناسي في حين أنّ تلك المشاهد استمرت في ترويعي كل ليلة إلى يومنا هذا.»[71]

إضافةً إلى كل هذه العقابيل النفسية والوصمات الاجتماعية، فقد دفعت بعض الجزائريات تكْلِفة اجتماعية باهظة: استحالة الزواج. ومثال ذلك ما باحت به السيدة ل.، التي اغتصبها العسكر الفرنسي وهي في سن الثامنة، لبوجي، فقالت لها بصوت خافِت: «هل فهمت الآن لماذا لم أتزوج؟»[72]

أما بشأن العواقب على المجتمع الجزائري، وخاصة على عائلات المغتصبات، فالموضوع مجهول تماماً. معروف أنّ بعض أزواج النسوة اللاتي تعرضن للاغتصاب الحربي انهاروا نفسياً، وفيهم حتى من انتحر، وهذه الظاهرة مازالت جارية إلى يومنا هذا، غير أنها لم تدرس بالتدقيق. ومن الكتابات النادرة في هذا الموضوع ما أورده فرانتز فانون في كتابه *المشردون في الأرض* الذي تناول مشكل من مشاكل هذه العائلات (راجع قضية مجاهد اغتصبت زوجته في الجزء 2.3.4 أدناه).

1.3.4.ملحق تاركة الهتيكة: *قضية خيرة قرن وابنها محمد*

المصدر: *لومند* 11 و12 أكتوبر 2001؛ *لومند دوسي*، رقم 302، أكتوبر 2001؛ *ليبراسيون*، 23 نوفمبر 2001؛ *لومانتي*، 23 نوفمبر 2001.

من حين لآخر يتيه محمد أياماً وليالٍ في شوارع باريس حيث يشطب جِذْعه وأوصاله بِشَفْرة حتى يُأخذ إلى المستشفى. يقول محمد أنه «فرنسي بالجريمة» منذ أن انتهى بحثه عن أبُوَّته إلى اكتشاف ظروف ولادته. ويعيش محمد منذ سنوات على وتر التطورات القضائية في مسألته، كما ينتظر الاعتراف بحاله كضحية وبمعاناته وكأنّ ذلك فرج. يقول محمد أنّ متابعته لفرنسا قضائياً «بمثابة علاج نفساني يفرغ قلبي المِلآن غمّاً.» لقد وصف طبيب الأمراض العقلية لوي كروك محمد قائلاً: «يسكنه الشعور بسُوء الحظ والهول وانعدام المعنى لوجوده. كما يشعر بالاحتقار والاختلاف عن كل من لديه والدان حقيقيان.»

في الواقع بدأت قصة محمد قرن حوالي سنة قبل ازدياده يوم 19 أبريل 1960 في معتقل ثنية الأحد وهو أحد المحتشدات أين جمّع الجيش الفرنسي ملايين الجزائريين إبان حرب التحرير لتفكيك المنظمات السياسية–الإدارية التابعة لجبهة التحرير الوطني. كانت خيرة في سن السادسة عشر لما قصف الجنرال شال جبال الونشريس في شهر أوت 1959. خرجت آنذاك خيرة من بيتها بعدما طلّقها زوجها، عبد القادر شوقي، بعد زواج دام ستة أشهر. كانت خيرة في حالة مذعورة بسبب القنابل، فالتجأت إلى شجرة محروقة. وجدها عسكر فرنسا جاثمة على غصن الشجرة فأخذوها إلى محتشد ثنية الأحد. هناك ضُربت واغتُصبت في نفس المساء، ثم طوال الأيام التالية، ثم طوال شهور. اغتصبها عدد كبير من الجنود. ثلاثون أو أربعون؟ خيرة تقول: «كثير من الجنود.» ولما حملت وصار حبلها ظاهر انزعج معذِّبوها واشتد ضربها. تواصل تعذيبها واستغلالها جنسياً طوال مدة حملها. فقدت صوابها خلال تلك المحنة ولم تستعد صحتها العقلية تماماً إلى اليوم.

رغم ذلك وضعت خيرة محمد يوم 19 أبريل 1960. كان الوضيع كسيحاً فانتُزع من أمه ونُقِل بين عدة مَياتِم وعائلات تبنته. وورد في مذكّرة قسم جراحة الأعصاب في مستشفى الجزائر الذي عالج محمد في مايو 1961: «طفل في سن الواحدة احتُجز في القسم بسبب حالة غَفْوة وخَلْفَة.» كما لاحظ الأطباء شقاً في الجُمجمة من جراء إساءة حاضِنَتِه في معاملته. بعدها أُخِذ إلى ميتم حتى سن الخامسة وأُودِعَ حينها إلى زوجين فنانين بلا أولاد. قالت السيدة أُ. أنّ «حالته التَرْكِّية أثارت شفقتي.»

تبع ذلك فسحة دامت عشر سنين. وتقول إحدى جاراته آنذاك: «كان مشكل بُنُوَّته يتأَكَّلُه ويُضْنيه. كان مراهقاً ذكيّا جداً ورهيف الحس، غير أنه كان في ضيق شديد.» وأضافت نفس السيدة أنّ أباه بالتبني كان سِكّيراً، فـ«ذات مرة كان يُوبِّخ محمداً، وأثناء ذلك شتمه ووصفه بابن القحبة، فأصيب محمد بنوبة عنيفة من القنوط وتوَّعَد بالارتماء من نافذة شقتي في الطابق العاشر من البناء، ثم هرب في الليل.» ولما تم طلاق الزوجان أُ. عام 1975، رفض كِلاهما كفالته، فأُعيد محمد إلى ميتم سان فانسا دو بول. واستتبع ذلك سنوات عديدة سقط فيها محمد في تعاطي الخمر والمخدرات، كما دخل السجن وحاول أن ينتحر مرتين. وتيسَّرت حياته قليلاً بعدما شرع في تكوين حِرفي للتمريض الطِبْعَقْليّ حيث التقى بزوجته. هي التي حثته على البحث عن أمه سنة 1986 بعد ازدياد طفلهما الأول، فانبثقت تساؤلاته ثانيةً.

تمكّن محمد من العثور على أثر أمه في سبتمبر 1988. كان ذلك عنواناً بحيدرة، فذهب هناك ذات مساء وكان المطر فيه مِدراراً. كان الناس ينظرون إلى هذا المخلوق الذي يبحث عن خيرة قرن بارتياب. قال له أحدهم: «تسكن هناك!» مشيراً إلى اتّجاه مقبرة سيدي يحي. لم يفهم محمد في أوّل الأمر غير أنّ سكان الحي أصرّوا في توجيهه هناك: «نعم، نعم، تسكُن هناك منذ سنوات ولكن لا ننصحك بالذهاب هناك هذا المساء لأنها خطيرة. ليكن في علمك أنها تُسمى الغولة.» رغم التحذير توجّه محمد إلى المقبرة ووراءه جَمْعٌ من السكان سمعوا بِقصته فأرادوا أن يشهادوا خاتمتها. كان حارس المقبرة يلعب الدومينو مع أصحابه في مدخل الجبّانة، فأوقفهم، فكان على محمد أن يروي قصته مرة أخرى. ذهل الحارس وأصحابه ولكن سمحوا للجَمْع بالدخول بعدما نصحوهم بالحذر، فقادوا محمد إلى «منزل» أمه: كَهْف في مكان هادئ وسط قبرين. كان الكَهْف مجهَّزاً بِغطاء ومَطيلة، وكان مدخله محصّناً بباب. كان الكَهْف مُنَوَّراً بضوء أَمْلج يشعّه مصباح كهربائي قد رُكِّب خارجه. دق محمد على الباب فخرجت خيرة.

كانت طويلة القامة مما شد انتباه محمد على الفور، وكان على رأسها منديل مُبَرْقَش. كان في يدها فأس فصاحت بصوت مُتوَعِّد: «ماذا تفعلون هنا؟ هَيّا! اذْهَبوا!» كلهم أجابوا في نفس الوقت ولكن محمد استطاع أن يُسمِع نفسه: «قلت لها: "أنا ابنك!" فانذهلت وتوقفت، وبعد لحظات من الصمت قالت لي بصوت مُتَحَرِّز: "إذا كنت ابني حقيقةً تعال وضع رأسك على كتفي." كان الناس حولي يهمسون: "لا تذهب، إن هذه المرأة فقدت صوابها وستقطع رأسك بفأسها إذا أطعتها." غير أنني اقتربتُ منها بدون

تردد، ثم وضعت رأسي على كتفها، فاشتَمَّتني وكأنها حيوان يشم صغيره.» وفجأةً قَبَّلت خيرة جبين محمد. وكان السكان وراءهم يبكون.

رجع محمد عند أمه في اليوم التالي وكل الأيام التالية غير أنه سرعان ما تدهورت العلاقة بينهما، وازداد شِجارهم تردداً وعنفاً. ولما سألها «من أبي؟» لأوّل مرة، اكتفت بإجابته: «اهدأ!» وبعدما ضايقها بالأسئلة عن أبيه، أفضى بها الأمر إلى إعطائه اسم زوجها السابق، عبد القادر بن شوقي، الذي كان قد استشهد في معركة مدة قصيرة بعد أن اختطفها الفرنسيون. أَخرجت أَوْراق عبد القادر وقالت: «هذا أبوك!» فقال محمد: «لماذا لا تتخذي الإجراءات لأُسمَّى باسْمِ أبي؟ لست أرغب في العيش بدون أب، لقد عانيت كثيراً من ذلك طوال ثمانية وعشرين سنة.» بدت خيرة وكأنها وافقت على الأمر ولكن مرت الأسابيع والشهور ولم تفعل شيئاً. لم يفهم محمد سبب التباطؤ وكان ذلك يُغضبه. وانتهى الأمر إلى خلاف بين محمد وأمه، فانقطع محمد عن زيارتها لمدة سنة.

حينها شرع محمد في إجراءات لتعترف به عائلة بن شوقي. وتطلّبت قضيته ثلاث مُرافعات استغرقت أربع سنوات. بعدما دُرِسَت قضيته في محكمة تيارت، التي كانت الجهة القضائية المختصة لمدينة ثنية الأحد قبل الاستقلال، نُقِل مِلفُهُ إلى المجلس القضائي لمدينة ثنية الأحد، ثم إلى محكمة الجزائر العليا.

استدعت محكمة الجزائر العليا خيرة يوم 22 مارس 1994، فحضرت وهي مُلْتحِفة بحَيْك أبيض. وبعدما قدّم أخ زوجها السابق المتوفى بيِّنة قاطعة أنّ أخاه كان عقيماً (وثيقة تشهد أنّ أخاه كان قد تزوج ثلاث نساء قبل أن يتأهَّل خيرة ولم ينجب أي ولد منهن)، توجَّه القاضي إلى خيرة وقال لها: «هيَّا! قولي الحقيقة بشأن ازدياد ابنك وإلاّ سأدخلك السجن!» فبدأت تتكلم عن المحتشد، ثم اعترفت للقاضي بصوت خافت: «سيدي القاضي، اغتصبوني.» وأُغْمِيَ على أم محمد أمامه.



السيدة خيرة قرن، أم

وبعد ذلك قصت خيرة لابنها كيف وجدها العسكر بعد عملية قصف في أوت 1959 وكيف اغتُصبت طوال ليالٍ كثيرة، وكيف تعرضت للضرب على البطن وللصعق

الكهربائي فوراً بعد حملها. بعد تلك المصيبة ارتزقت خيرة بالخدمة المياومة وصدقات بعض الناس، ثم تحصلّت على نفقة تَرَمُّل مجاهد سابق والتجأت إلى المقبرة. وبذل محمد كل ما في وُسْعه لينقل أمه إلى مسكن آخر غير أنّ ذلك كان بلا جَدْوى. ولم تسمح له أمه بإخراجها من كَهْفها إلاّ إلى بيت صغير مُجهّز بالماء والكهرباء بُنِي في نفس المكان

وسط القبور. وكثيراً ما كانت أمه تقول له: «اتركني مع الموتى، ليس الموتى بمُؤذين. تَأذَّيت كثيراً من الأحياء وأنت البرهان الساطع على ذلك.»

كيف تتصور خيرة أب محمد من بين الثلاثين أو الخمسين جندي الذين اغتصبوها؟ يقول ابن المرأة التي لم يرحمها الأحياء: «اعتقد أنّ صورتي حلَّت مَحَلّ صورة معذِّبيها الذين اندثروا من ذاكرتها. ما تبقى إلاّ صورة ابنها. أنا هو من يحبها ويحميها، لقد أصبحت ابنتي نوعاً ما، وذلك يؤلمني. هي من لحمي وأنا هو الولد المرعوب الذي كان يحاول النوم فوق شجرة محروقة، وكان يفر ويبكي... أنا هو الولد المغتصَب.» يقول محمد أنّ حالة أمه تحسنت منذ أن التقى بها. كثيراً ما تقول له أمه «أحبك، أحبك كثيراً» أو «أنت ابنٌ مثالي ولست بنسل الاغتصاب بالنسبة لي.»

وأخيراً بعد نجاح متابعة محمد الدولة الفرنسية قضائياً في باريس في نوفمبر 2001، قال محمد: «إني راضٍ بالحكم لأنه اعترف أني ضحية مباشرة لحرب الجزائر وأني ضحية الجرائم التي ارتكبها الجيش الفرنسي. استمرت في القول أني نسل الاغتصاب وأني فرنسي بالجريمة وذلك لمدة ثلاثة عشر عاماً. أخيراً اعترفت الدولة بذلك وهذا شيء جيد. لقد فُتح هذا الملف المؤلم بعد أربعين عاماً من الكتمان. إني فرح لنفسي ولكل الضحايا الآخرين الذين سيُمَكِّنهم هذا الحكم من الكلام.»

2.3.4. *ملحق تاركة الهتيكة: قضية مجاهد اغتُصبت زوجته*

المصدر: فرنتز فانون، *المشردون في الأرض*، ص. 225-230.[73]

السيد ب. رجلٌ في سن السادسة والعشرين أُرسِل إلينا من طرف المصلحة الصحية لجبهة التحرير الوطني، وذلك لمعالجة شقيقة عُضالة وسُهاد. والرجل سائق تاكسي سابق ناضل في الأحزاب الوطنية منذ سن الثامنة عشر. وأصبح عضواً في خلية تابعة لجبهة التحرير الوطني منذ سنة 1955. ووظّف تاكسيه عدة مرات لحمل المنشورات والمسؤولين السياسيين. وبعدما قررت جبهة التحرير الوطني نقل الحرب إلى المدن للتصدي لِتفاقم القمع، استُدْرِجَ ب. إلى نقل فرق الكومندوس قرب أماكن الهجوم، وإلى انتظارهم مراراً.

وذات يوم أُرْغِمَ على ترك تاكسيه بعد عملية مهمة في قلب مدينة أوروبية تبعها إقفال خطير جداً للمكان، فانسحب الكومندوس وتفرّق. فتمكن ب. من الإفلات لقوات الخصم المحشودة ولجأ إلى بيت زميل له، وبعد أيام قليلة التحق بأقرب جبل بأمر من مسؤوليه. والتحق بالمجاهدين بدون أن يرجع إلى بيته.

لم تصله أخبار زوجته وابنته (التي كان سنها 20 شهراً في السن) لعدة شهور، غير أنه سمع أنّ الشرطة بحثت عنه في المدينة طوال أسابيع كاملة. وبعد سنتين في الجبل وصلته رسالة من زوجته تعلمه أن عِرْضها دُنِّس، وتطلب منه فيها أن ينساها وأن لا ينوي استعاد الحياة الزوجية معها. فأقلقه الخبر جداً، وطلب من قائده الإذن بزيارة بيته سراً ولكن رُفض طلبه هذا. فبدلاً من ذلك، أُخذت إجراءات لاتصال عضو من جبهة التحرير الوطني بزوجته وعائلته. وبعد أسبوعين وصل تقرير مفصّل إلى قائد الوحدة التي ينتمي إليها ب.

لقد ذهب الجند الفرنسيون والشرطة إلى بيته فوراً بعدما اكتشفوا تاكسيه متروكاً وفيه مُلْقِمان الرشاشة. ولم يجدوه في البيت فأخذوا زوجته واعتقلوها لأكثر من أسبوع.

استُنطقت عن معاشرات زوجها ولُطمت بعنف طوال يومين. ولكن في اليوم الثالث أخرج عسكري فرنسي — لم تستطع أن تحدّد إذ كان ضابطاً — زملاءه ثم اغتصبها. وبعد حين اغتصبها عسكري ثان بحضور الآخرين وقال لها: «إذا التقيت بزوجك الدنيء يوماً ما لا تنسي إعلامه بما فعلنا بك.» ومَكَثَت في المكان أسبوعاً آخر بدون تعرّض للاستنطاق، ثم أُرجعت إلى بيتها. وبعد ما قصت محنتها لأمها، أقنعتها الأم بإفشاء كل شيء لزوجها، فهذا ما جعلها تعترف بتدنيس عِرْضها في أول اتصال لها مع زوجها.

وبعد الصدمة الأولى، استرجع ب. قواه لا سيما أنه كان يشارك في عمليات مستمرة. وطوال شهور كاملة سمع عدة شهادات عن جزائريات تعرضن للاغتصاب أو التعذيب، كما التقى برجال اغتُصبت أزواجهم. وأزاح في تلك الفترة مصيبته الشخصية وإهانته كزوج إلى المحل الثاني.

وفي سنة 1958 كُلِّف بمهمة في الخارج، وقبل رجوعه إلى وحدته بقليل أظهر شروديّة غير اعتيادية وسُهاداً، فانزعج زملاؤه ومسؤولوه، فأجّلت عودته وأُحيل للعيادة الطبية. كان ذلك القرار لأول فرصة لتفحصنا السيد ب. كانت العلاقة بيننا جد مباشرةً. كان وجهه مُتَحرِّكاً ربما أكثر من اللازم، وكان يُبالغ شيئاً ما في ابتساماته، كما كان يظهر غِبْطة سطحية: «لا بأس... لا بأس... إني في صحة جيدة الآن. أعطيني بعض المُنَشِّطات

والفيتامينات وخلِّني أرجع إلى الجبل.» وكان قلقاً أساسياً يبرز وراء هذا المظْهَر، فأدخِل إلى المستشفى فوراً.

لقد انهارت واجهته التَفاؤليّة ابتداء من اليوم الثاني. إنّ الرجل في الفراش إنسان مُكتئِب وقَهَمِيّ ويتهرب من المناقشات السياسية. وأصبح لا يبالي بما يخص المقاومة الوطنية ويجتنب كل أخبار حرب التحرير. وكان فحص مشاكله وتحديدها متعب جداً غير أننا استطعنا تشكيل قصته.

وفي أثناء مهمته في الخارج حاول أن يستمتع بامرأة ولكنه فشل، فنسب ذلك إلى التعب من جراء السير الحثيث وسوء التغذية. وحاول إذن الاستمتاع أسبوعين بعد المرة الأولى ولكن فشل مرة أخرى. وباح بمشكلته لزميل له، فنصحه بالتنشيط بفيتامين بـ.12، فأخذ ذلك الدواء ثم حاول مرة أخرى ولكن عجز جنسياً، وإضافةً إلى ذلك كان كلما شرع في الفعل استحوذت عليه — لحظات قبل ذلك — رغبة قوية في تمزيق صورة ابنته الصغيرة. قد تُفسر هذه العلاقة الرمزية بوجود اندفاع لا شعوري لارتكاب محرّم غير أننا اكتشفنا تشخيصاً آخر بواسطة المحادثات وكذا حلماً رأى فيه المريض قطاً صغيراً يتعفَّن وتفوح منه رائحة لا تُطاق. وذات يومٍ قال لنا: «هذه البنت (أي ابنته) فيها شيء مُتَعَفِّن.» فمنذ تلك الفترة أصبح سُهاده مزعجاً جداً، ورغم تجرعه لكمية هائلة من مُهدّئ الأعصاب بقي الرجل في حالة تهيّج قلق ضايقت المصلحة الطبية كثيراً. وفي أثناء ذلك قال لنا للمرة الأولى وهو يضحك: «ذاقت الفرنسي.» فحينها تمكننا من إعادة تشكيل قصته وإبانة تركيب الأحداث. وأعلمنا أنه كلما حاول الاستمتاع استحوذ عليه التفكير في زوجته. وكل هذه الأسرار بدت لنا مهمة جداً.

قال ب. : «تزوجت مع هذه الشابة غير أني كنت أحب بنت عمي. وبعدما رتب عمي زواج ابنته مع رجل آخر، قبلتُ المرأة الأولى التي اقترحها والدي. لقد كانت ظريفة ولكني لم أكن أحبها، وكنت أقول في نفسي: "ما زلت شاباً... أصبر قليلا ولما تجد الزوجة المناسبة طلّق هذه وتزوج زواجاً حسناً." لذلك لم أكن متعلقاً كثيراً بزوجتي، وبعد الأحداث ابتعدتُ عنها أكثر، وكنت مؤخراً أذهب للبيت للأكل والنوم فقط ولم أكن أتكلم معها تقريباً.»

«في الجبل، في أوّل الأمر شعرتُ بالغضب إزاء أولئك الأقذار لما علمت أنها اغتُصبت من طرف الفرنسيين. بعدها قلت في نفسي: "ليس ذلك بمهم، المهم أنها لم تُقتل، وسيمكن لها إعادة بناء حياتها." وبعد ذلك بعدة أسابيع أدركتُ أنها اغتُصبت *لأني كنت مطارداً*. في الواقع، لقد اغتُصبت لعقابها عن صمتها. فكان يمكن لها أن تعطي اسم أحد

المناضلين ليستعمله العدو كمنطلق لتفكيك الشبكة وربما لتوقيفي، ولذلك فإنّ اغتصابها كان اغتصاب امرأة عنيدة ضحت بكل شيء بدلا من خيانة زوجها. وأنا هو هذا الزوج. فهذه المرأة انقذتني وحمت الشبكة، وأنا هو سبب تدنيس عِرْضها. ورغم كل ذلك لم تقل لي: "هذا ما عانيت من أجلك!" فبالعكس كانت تقول لي: "أنساني، أبنِ حياتك من جديد لأنّ عِرْضي هُتِك."»

«من ثم قررتُ في نفسي ردّ زوجتي بعد الحرب. ويجب أن أقول لك أني شاهدت فلاحين يمسحون دموع أزواجهم بعدما اغتُصبن على نُصب أعينهم، فزلزلني ذلك الموقف زلزالاً شديداً. وأقرّ لك أني لم أفهم موقفهم في أوّل الأمر، ولكن استُدرِجنا إلى التدخل في هذه المصائب لشرح الأمر للمدنيين، وشاهدت متطوعين مدنيين هموا بالتزوج بشابة حَمَلت بعدما اغتصبها العسكر الفرنسي. فكل ذلك حملني على إعادة التفكير في مشكل زوجتي.»

«قررت ردها ولكن ما زلت أجهل كيف سأستجيب لما أراها. وكلما أرى صورة ابنتي كثيراً ما أفكر أنّ عِرْضها هُتك هو أيضاً. فكأنّ التعفن أصاب كل شيء يتعلق بزوجتي. ما كنت أتأثر لو عذبوها أو كسروا كل أسنانها أو كسروا يدها. ولكن هذا الشيء... هل يمكن نسيانه؟ وظف لذلك هل كان ضرورياً أن تعلمني بكل هذا الأمر؟»

بعد ذلك سألني ب. إذا كان قلقه هو السبب في عُنَّته، فقلت له: «ليس ذلك بمستحيل.» بعدها جلس على الفراش وسألني: «ماذا كنتَ تفعل لو كنت في نفس الوضع؟»، فقلت: «لا أعلم...» فسألني: «هل ترد زوجتك؟»، فأجبت: «أظن... نعم...» فقال: «آه، شفت! لست متيقناً تماماً...» ثم وضع رأسه بين يديه وغادر الغرفة.

من ذلك اليوم قبل ب. تدريجياً السماع للمناقشات السياسية كما تناقصَ صُداعه وقَهَمه كثيراً.

التحق بوحدته بعد أسبوعين وقال لي: «بعد الاستقلال سأردّ زوجتي، وإذا ظهرت مشاكل فإني سأزورك في الجزائر.»

5. خاتمة

حاول هذا الجمع من القراءات أن يعطي لمحة وجيزة عن تعذيب واغتصاب الجزائريات إبان الاستعمار الفرنسي.

بدأ المقال بإلقاء شيء من الضوء على الأدوار المختلفة التي تحمّلتها الجزائريات في غضون الحرب، وذلك لتفادي أن يوحى إلى القارئ بأنّ تجاربهن تنحصر في التعرض للتعذيب والاغتصاب.

بعد ذلك قدم المقال شهادات عن التعذيب تعرض مِحَن عيِّنة من الفدائيات والمجاهدات والمسبِّلات. والتركيز على الشهادة بدلا من التحليل يرمي إلى إبراز فعالية هؤلاء النسوة الأخلاقية والسياسية بدلاً من كونهن ضحايا مُسْتَعْطِفة. إنّ هذه العينة من الشهادات سعت إلى تقديم فكرة عامة عن مدى ممارسة فرنسا للتعذيب وطرقها ومقاصدها في ذلك. ولم يتطرق المقال إلى دراسة تحليلية لمدى ممارسة التعذيب وتطورها وانتشارها ووسائلها وتنظيمها ومأسستها، وكذا أهدافها الاستراتيجية والتكتيكية والعقابية، وذلك لأن هذه الأمور نوقشت بإيجاز في المقال بعنوان *كراسة عن التعذيب الفرنسي في الجزائر*[ضض] وبالتفصيل في كتاب رَفائيل برانش بعنوان *التعذيب والجيش أثناء حرب الجزائر*.

وقدم هذا المقال أيضاً عرضاً وجيزاً لممارسة الاغتصاب الحربي من طرف الجيش الفرنسي. فقُدِمت بعض الأمثلة عن الاغتصابات وضروب العنف الجنسي ضد الجزائريات، غير أن كل الشهادات وردت عن المقترفين أو الشهداء، ولم نعرض أية شهادة على نمط المتكلم المفرد، و هذا راجع لصمت المغتصَبات من جراء العار الذي يرافق هذه الجريمة. وبعد المحاجّة أنّ الاغتصابات لم تكن تجاوزات متشتِّتة أو أحداثاً عشوائية، والدليل أنها كانت نتيجة إرادة جماعية منظمة، استبطن المقال كل المقاصد الاستراتيجية لممارسة فرنسا الاغتصاب الحربي، منها معاقبة المستهدفات، وإرهاب النسوة اللاتي تتماثل معهن وكسر مقاومتهن، واستعراض سلطة فرنسا وإظهار عجز جبهة التحرير الوطني عن حماية الجزائريات، وكذا تفكيك تماسك الشعب الجزائري اجتماعياً وسياسياً. أما المقاصد الداخلية للجيش الفرنسي فتضمن مكافأة الجنود ونسج الروابط والتضامن بينهم. وتطرق المقال أيضاً إلى عواقب الاغتصاب الجسدية والنفسية والاجتماعية على المغتصَبات، وكذا عواقبها الاجتماعية على العائلات والمجتمع.

ضض راجع المقال السابق في هذا الكتاب.

أخيراً نأمل أنّ هذا الجمع من القراءات سيعتبر فتحاً بدلاً من غلق موضوع تعذيب واغتصاب الجزائريات إبان الاستعمار الفرنسي. إن ممارسة هذه الجرائم في غضون الحملات الإبادية الغازية الأولى (1830–1872) وأثناء الفترة الانتقالية إلى حرب التحرير (1900–1945) موضوع مجهول تقريباً. فيجب أن تبذل جهودٌ للبحث عن أكثر عدد ممكن من الشهادات الشفوية والمكتوبة مصدرها الضحايا والشهداء والمقترفين. إن هذه المادة مهمة في ذاتها كما هي مفيدة جداً لاستنتاج معلومات عدة عن مدى هذه الجرائم وتطورها الزمني وانتشارها الجغرافي، وكذا منفعيتها الاستراتيجية بالنسبة للجيش الفرنسي.

فنفس مقتضيات البحث تنطبق على سنوات اِحْتِضار الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1954–1962). لذا يجب تجميع عدد أكبر من هذه الشهادات الشفاهية والمكتوبة، وذلك بالطبع يقتضي تفكيك سياسة إفقاد الذاكرة التاريخية التي تنتهجها بعض الجهات المتنفذة والموالية لفرنسا داخل السلطة الجزائرية. فكما قالت لويزة إغيل أحريز: «أنا لا أفهم سكوت مسؤولي الدولة والطبقة السياسية. ... يجب مساعدتنا وتشجيعنا لكتابة تاريخنا، كما يجب الافتخار بتاريخنا لأنه من أجمل وأقسى تواريخ العالم. ما هو مصدر العار والصمت؟ أنا حيرانة.»[74] إنّ تجميع الشهادات سيمكّن أيضاً استنتاجاً كمياً ودقيقاً لكل المعطيات الكلية التي تشخّص هذه الممارسات. كما سيثبّت البيّنات المتوفرة عن كل أشكال التوظيف الاستراتيجي الفرنسي للتعذيب والاغتصاب.

لم يعالج هذا المقال إشكالية وجود ترابط بين تعذيب واغتصاب الجزائريات بعد الاستقلال وتعذيبهن واغتصابهن تحت الاستعمار. هل هناك ترابط تاريخي بين ممارسات الأمس وممارسات اليوم؟ هل فيه تشابهات في الطبع والشكل، وفي التطور الزمني والانتشار الجغرافي، وفي الطرق والوسائل؟ هل تتشابه الممارسات في المقاصد والمنفعيات؟ ليست الإجابة على هذه الأسئلة بسهلة لأنها تستطلب الدِراية بمقتضَيات منهج التاريخ المقارن، كما تستلزم انتظار تقارير التحقيقات عن هذه الممارسات في العقد السابق خصوصاً، وكل ذلك حتى تستند المقارنة إلى منهج سليم ومعلومات موثوقة ودقيقة.

يجب أن لا يصرف انتباهنا عن القضايا الإنسانية التي تثيرها هذه الجرائم. إنّ الدولة الجزائرية تجاهلت هذا الجانب تماماً وعجزت عن تقديم دعم نفسي واجتماعي لإعادة تأهيل ضحايا التعذيب والاغتصاب خاصةً. ربما كانت سياسة الصمت التي انتهجتها جبهة التحرير الوطني في غضون الحرب مبرّرة لحدٍ ما وهذا لحرمان العدو من تفوق نفسي–سياسي، ولكن لا تبرير لسياسية السكوت بعد الاستقلال، ولا عذر للعجز عن المساعدة النفسية والاجتماعية للضحايا. لقد عانت معظم النسوة المغتصَبات من عدة جروح نفسية

منها الانهيار العصبي والشعور بالعار والسلوك التدميري للذات، كما تألمت بعضهن من الإقصاء والنبذ الاجتماعي. ومعروف أنّ عائلاتهن (أزواجهن بالخصوص) وأولاد الاغتصاب قاسوا من عدة مشاكل نفسية واجتماعية. كان بإمكان الدولة التخفيف من حدة هذه العقابيل بالاعتراف رسمياً وعلانيةً بالمشكل ومداه، وبتجنيد الوسائل التقنية (طبية–نفسية واجتماعية) والتنظيمية والمالية لمعالجته، ولكن للأسف عجزت الدولة عن تقديم ذلك. وغني عن البيان أنّ معالجة ما تبقّى من هذه التركة ولو متأخراً خيرٌ من تجاهلها نهائياً بذريعة فوات الأوان.

لقد ناقش المجتمع الفرنسي هذه السنة ممارسة التعذيب في الجزائر وسط الصمت المصِمّ الذي التزمته الطغمة الحاكمة في الجزائر وذلك رغم رغبة عدد هائل من الضحايا في حمل الدولة الفرنسية على الاعتراف بفظائعها وابتغاءهم تعيين ومحاسبة عيّنة من أهم مقترفيها. فمن الضروري والعاجل أن يتبنى المجتمع المدني هذه القضايا وأن يناضل لتحقيقها.






UN SEUL HEROS
LE PEUPLE





الهوامش

[1] Frantz Fanon, *El-Moudjahid*, No 10, Septembre 1957.

[2] Frantz Fanon, Sociologie d'une révolution: L'an V de la révolution Algérienne, Edition Maspéro, Paris 1966, p. 23.

[3] Mohamed Benyahia, *La Conjuration au pouvoir*, Editions Arcantère, Paris, p. 98.

[4] Alistair Horne, *A Savage War of Peace: Algeria 1954 – 1962*, Papermac Publishers, London 1987.

[5] Raphaëlle Branche, *La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie*, Gallimard, Paris 2001, p. 303.

[6] P. Kessel et G. Pirelli, *Le Peuple Algérien et la guerre: Lettres et témoignages 1954-1962*, Editions François Maspéro, Paris 1962.

[7] Danièle Djamila Amrane-Minne, *Des Femmes dans la guerre d'Algérie*, Editions Karthala, Paris 1994.

[8] Simone de Beauvoir and Gisèle Halimi (eds.), translated by Peter Green, *Djamila Boupacha*, André Deutsch Ltd and Weidenfeld and Nicolson Ltd, London 1962.

[9] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 305.

[10] Danièle Djamila Amrane-Minne, *Des Femmes dans la guerre d'Algérie*, op. cit.

[11] Ibid.

[12] Ibid.

[13] Ibid.

[14] Mahfoud Bennoune, *The Making of Contemporary Algeria 1830-1987*, Cambridge University Press, Cambridge 1988, p. 35.

[15] Henri Alleg, *La Guerre d'Algérie*, vol. 1 (Paris: Temps Actuels, 1981), p. 64.

[16] P. Christian, L'Afrique française, L'empire du Maroc et les déserts du Sahara: Histoire nationale des conquêtes, victoire et nouvelles découvertes des Français depuis la prise d'Alger jusqu'à nos jours, Paris: 1845-1846, cited by Henri Alleg, La Guerre d'Algérie, vol. 1, op. cit. p. 64; Yves Lacoste, André Nouschi and André Prenant, L'Algérie: passé et présent. Le cadre et les étapes de la constitution de l'Algérie actuelle, Editions Sociales, Paris 1960, p. 255.

[17] Henri Alleg, *La Guerre d'Algérie*, op. cit, pp. 66-67.

[18] Henri Alleg, *La Guerre d'Algérie*, op. cit, p. 77.

[19] Colonel de Montagnac, *Lettres de Montagnac*, Paris 1885, cité dans Henri Alleg, *La Guerre d'Algérie*, op. cit, p. 67.

[20] Alistair Horne, A Savage War of Peace: Algeria 1954 – 1962, op. cit., p. 402.

[21] Mouloud Feraoun, *Journal: 1955-1962*, 20 février 1959.

[22] Benoist Rey, *Les Égorgeurs*, Editions du Monde Libertaire et Las Solidarios, Paris 1999, p. 39.

[23] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[24] Ibid.

[25] Charlotte Lindsey, *Women and War*, International Review of the Red Cross, No 839, 30 September 2000, pp. 561-579.

[26] Mouloud Feraoun, *Journal: 1955-1962*, 20 février 1959.

[27] Ibid.

[28] Ibid.

[29] Hafid Keramane, *La Pacification*, Editions La Cité, Lausanne 1960, p. 194.

[30] Camille Lacoste-Dujardin, Opération 'Oiseau bleu': Des Kabyles, des ethnologues et la guerre en Algérie, La Découverte, Paris 1997, p. 158.

[31] *El-Moudjahid*, No 47, 3 aout 1959, cite dans Hafid Keramane, *La Pacification*, Editions La Cité, Lausanne 1960, pp. 215-221.

[32] Benoist Rey, *Les Égorgeurs*, op. cit, p. 39.

[33] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 293.

[34] Jean-Pierre Vittori (ed.), *On a torturé en Algérie*, Ramsay, Paris 2000, p. 169.

[35] Benoist Rey, *Les Égorgeurs*, op. cit, pp. 93-94.

[36] *El-Moudjahid*, No 47, 3 aout 1959, cité dans Hafid Keramane, *La Pacification*, op. cit., pp. 215-221.

[37] Camille Lacoste-Dujardin, Opération 'Oiseau bleu': Des Kabyles, des ethnologues et la guerre en Algérie, op. cit, p. 159.

[38] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 304.

[39] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 305.

[40] Florence Beaugé, 'L'Officier nous disait: violez mais faites cela discrètement', *Le Monde*, 23 novembre 2001.

[41] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[42] Phillipe Bernard, 'Un Ancien chef d'Etat-major des armies mis en cause', *Le Monde*, Dossier & Documents, No 302, Octobre 2001, p. 2.

[43] Jean-Pierre Vittori (ed.), *On a torturé en Algérie*, op. cit, pp. 120-121.

[44] Idir Dahmani, 'Entretien avec Louisa Ighil Ahriz: Pourquoi les Algériens ne veulent pas en parler?', *Le Jeune Indépendant*, 4 décembre 2000.

[45] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[46] Benoist Rey, *Les Égorgeurs*, op. cit, p. 91.

[47] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 309.

[48] Ibid.

[49] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[50] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 293.

[51] *El-Moudjahid*, No 47, 3 aout 1959, cité dans Hafid Keramane, *La Pacification*, op. cit., pp. 215-221.

[52] P. Kessel et G. Pirelli, Le Peuple Algérien et la guerre: Lettres et témoignages 1954-1962, op. cit., pp. 36-37.

[53] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., pp. 294-296, p. 299.

[54] Ibid.

[55] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[56] Benoist Rey, *Les Égorgeurs*, op. cit., p. 39.

[57] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[58] Benoist Rey, *Les Égorgeurs*, op. cit., p. 46.

[59] Raphaëlle Branche, La torture et l'armée pendant la guerre d'Algérie, op. cit., p. 291.

[60] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[61] Ibid.

[62] Ibid.

[63] Danièle Djamila Amrane-Minne, *Des Femmes dans la guerre d'Algérie*, op. cit., p. 47.

[64] Camille Lacoste-Dujardin, Opération 'Oiseau bleu': Des Kabyles, des ethnologues et la guerre en Algérie, op. cit, pp. 158-159.

[65] Camille Lacoste-Dujardin, Opération 'Oiseau bleu': Des Kabyles, des ethnologues et la guerre en Algérie, op. cit, pp. 159-160.

[66] Danièle Djamila Amrane-Minne, *Des Femmes dans la guerre d'Algérie*, op. cit., p. 47.

[67] Florence Beaugé, 'Le Tabou du viol des femmes pendant la guerre d'Algérie commence à être levé', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[68] Florence Beaugé, 'Dans l'esprit de nos parents, il aurait mieux valu que nous soyons mortes', *Le Monde*, 11 octobre 2001.

[69] Ibid.

[70] Ibid.

[71] Ibid.

[72] Ibid.

[73] Frantz Fanon, *Les Damnés de la terre*, Editions Enag, Alger 1987, pp. 225-230.

[74] Idir Dahmani, 'Entretien avec Louisa Ighil Ahriz: Pourquoi les Algériens ne veulent pas en parler?', *Le Jeune Indépendant*, 4 décembre 2000.